أثر القرائن في تصوير دلالات القميص

في

سورة يوسف عليه السلام

إعداد

أ.د / السيد أحمد أحمد موسى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر ببورسعيد

١٤٤٢هـ = ٢٠٢٠م

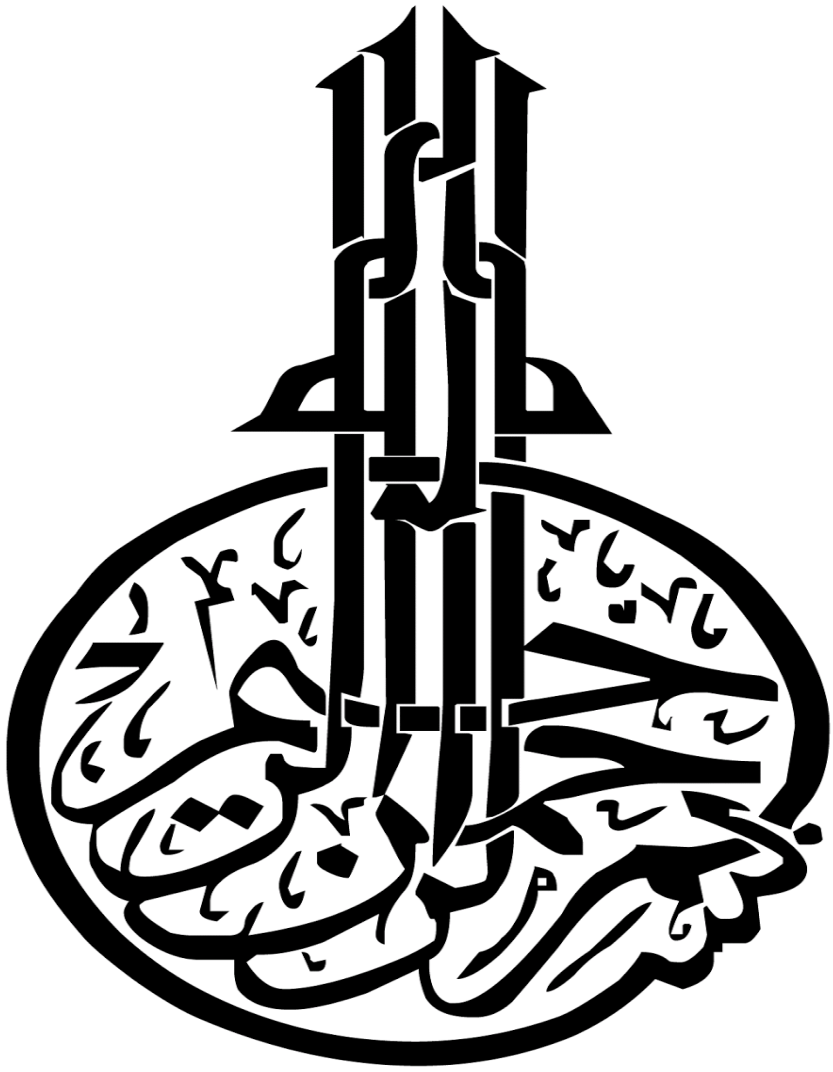

أثر القرائن في تصوير دلالات القميص في سورة يوسف عليه السلام .

د: السيد أحمد أحمد موسىٰ

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد – جامعة الأزهر – جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: khaterelsayed187@gmail.com

" الملخص "

يهدف هذا البحث إلىٰ بيان أثر القرائن بنوعيها لفظية كانت أم معنوية في تصوير دلالات القميص في سورة يوسف – عليه السلام – وكذلك في تقريرها وتأكيدها ، وتثبيتها وتمكينها ؛ فإن القرائن هي أدلة صحة هذه المعاني ، وهي المعالم الهادية إلىٰ دروبها وطرق استنباطها ، كما يهدف إلىٰ إبراز فاعلية هذا القميص ، وتعميق دوره المحوري في نمو أحداث القصة وصعودها نحو غاياتها وأهدافها .

وقد جاء هذا البحث في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة محاور ، وخاتمة ، وفهارس،

١-المقدمة : تناولت فيها أهمية الموضوع وذكرت فيها أسباب اختياره ، والخطة التي يقوم عليها، والمنهج المتبع في الدراسة. ٢-التمهيد : وجاء في أربعة مطالب : الأول : مفهوم القرينة ، الثاني : أقسام القرينة ، الثالث : أثر القرائن في تقرير المعنىٰ ، الرابع : علاقة القميص ودلالاته بمطلع السورة والغرض منها .

٣-المحور الأول : أثر القرائن في تصوير دلالة القميص علىٰ كذب إخوة يوسف وبراءة الذئب. ٤-المحور الثاني : أثر القرائن في تصوير دلالة القميص علىٰ براءة

يوسف وكذب امرأة العزيز. ٥-المحور الثالث : أثر القرائن في تصوير دلالة القميص علىٰ حياة يوسف والإعلام بقرب لقائه.

٦-الخاتمة : وذكرت فيها أهم نتائج البحث التي كان منها : ١- فاعلية القرائن وأثرها العميق في تصوير دلالات القميص في قصة يوسف وفي الكشف عنها ٢- أن القرائن هي المعول عليه وحده في تعيين دلالات القميص ، وفي ترجيح جانب دلالة علىٰ دلالة أخرىٰ ٣- كان للقرائن أثر كبير في تحقيق نوع من الثنائيات المتقابلة والمعاني المتضادة بين دلالات القميص الواحد ، وبين دلالات الأقمصة الثلاثة في محاور الدراسة.

٧-الفهارس : وجاء أحدها للمصادر والمراجع ، وجاء الآخر للموضوعات .

الكلمات المفتاحية : دلالات – القميص – القرائن – السياقية – الحالية .

والله أسأل أن يكون من وراء القصد

Title: The effect of clues on depicting the connotations of the shirt in Surat Yusuf, peace be upon him

Researcher name: Dr: El Sayed Ahmed Ahmed Moussa
Position: Assistant Professor of Rhetoric and Criticism/ Faculty of Islamic and Arabic Studies for girls / Port said/ Al-Azhar University/ Arab Republic of Egypt.
E-Mail: khaterelsayed187@gmail.com

Abstract:

This research aims to demonstrate the effect of clues, both verbal and moral, in depicting the semantics of the shirt in Surat Yusuf - peace be upon him - as well as in its determination, confirmation, certainty and confirming ؛The clues are evidence of the validity of these meanings, and they are the milestones that guide to their paths and methods of eliciting them, as it aims to highlight the effectiveness of this shirt, and deepen its pivotal role in the growth of the events of the story and its rise towards its goals and objectives.

This research includes introduction, preface, three sections, conclusion and indexes.

1- The introduction: I talked about the importance of the topic; I mentioned the reasonsfor this choice, the plan, and the approach.

2- The Preface: It comes in four demands: the first: the concept of the clue, the second: the sections of the clue, the third: the effect of the clues in determining the meaning, the fourth: the relationship of the shirt and its connotations with the beginning of the surah and its purpose

3- The First section: The impact of the clues in describing the significance of the shirt on the lies of Youssef's brothers and the innocence of the wolf

The Second section: The effect of clues in describing the significance of the shirt on the innocence of Youssef and the lying of the Aziz woman

The Third section: The effect of clues in describing the significance of the shirt on Youssef's life and informing about his meeting surely soon .

The Conclusion: I mentioned in it the most important results of the research, which included:

1- The effectiveness of the clues and their profound effect in depicting the connotations of a shirt in Yusuf's story and in revealing it

2- The clues are the only ones that can be relied upon in determining the connotations of the shirt, and in the priority of one aspect of an indication of another

3- The clues have a great impact in achieving a type of opposing dualities and contradictory meanings between the connotations of one shirt, and the semantics of the three shirts in the axes of the study.

Indexes: One of them for the sources and references, and the other for the subjects

keywords:The connotations - The shirt –The clues- Contextual- The contemporary

I ask Allah's pleasant for this research, that's all my intention … He is the sustainer and able to do that.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين ، وخاتم النبيين سيدنا محمد ، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين وبعد :

فقصة يوسف – عليه السلام – في القرآن الكريم تمثل النموذج الواقعي الأسمىٰ، والمثل الأعلىٰ للأداء الفني ذي الصبغة الإسلامية للقصة ، والذي يتسم بصدقه الرائع العميق ، وواقعيته السليمة النظيفة ، التي تفيض عفافا وطهرا، وتتفجر أدبا ونبلا ، ولا عجب في ذلك أبدا ؛ فقد سماها القرآن أحسن القصص ، ونعتها بأنها آيات محكمات للسائلين .

والمتأمل في هذه القصة ، والمتتبع لأحداثها ، ومواقفها ، ومشاهدها في كتاب الله – عز وجل – في سورة يوسف يجد أنها قد اختصت من بين قصص القرآن بورود لفظة القميص فيها خاصة ؛ إذ لم تأت هذه اللفظة في غيرها من سور القرآن، وقد تكرر ذلك في السورة الكريمة نحوا من أربع عشرة مرة ، جاءت في ست منها بصريح لفظ القميص ، وتراوح مجيئها في الثماني الأخر بين أن تذكر بضمير الغيبة الظاهر أو المستتر الذي يعود إلىٰ القميص نفسه ، وبين أن تذكر باسم ظاهر من مادة أخرىٰ يسد مسد القميص ، ويقوم مقامه في الدلالة.

وقد تشكل من تكرر اللفظة في مواضعها من السورة الكريمة علىٰ النحو المذكور ثلاثة أنواع من الأقمصة تمحورت حولها القصة في جل مواقفها ومشاهدها، وكان لها أبلغ الأثر في تنامي الأحداث وتصاعدها إلىٰ الذروة أو العقدة، وإلىٰ بلوغ الغاية والهدف المنشود منها ، وكذلك في رسم ملامح شخصية نبي الله يوسف – عليه السلام – وتصويرها، وتحديد مسيرته في مراحل حياته وأطوار عمره المختلفة .

ومن وجه آخر : فقد تناسل من وراء هذا التشكل ومن خلف هذا التنوع المذكور في مواقعه كثير من المعاني والدلالات ، والأسرار والنكات التي تؤكد – من جانب – فاعلية هذا القميص ، وتعاظم دوره في تحقيق غايات القصة وأهدافها، دينية كانت هذه الأهداف، أم تربوية ، أم فنية .

كما تؤكد – من جانب آخر – علىٰ أن هذا القميص – علىٰ تنوعه – يترفع في القصة – حسبما قرره علماؤنا – عن أن يكون مجرد رداء عادي ، منسوج من مادة خاصة ، تقي لابسها العلائق و الأغيار، أو تتخذ مادة للستر والزينة ، بل هو – من وجه – رسالة تحمل في ثناياها دلالات وإشارات ، وهو – من وجه آخر – يشخص برهانا ساطعا ، وحجة دامغة علىٰ نوايا ، وأقوال ، وأفعال ، فيها دروس من الإيمان والصبر ، والعفاف والبر ، والرحمة والشكر ، والرعاية والنصر ،لا ينبغي تجاوزها ، أو إغفالها ، أو إهمالها ، سواء أصدرت هذه النوايا، والأقوال، والأفعال من لابس القميص نفسه ، أم من المتعرض له .

ومع كثرة ما كتب قديمًا وحديثًا حول قصة يوسف – عليه السلام – في القرآن، أو كتب حول دلالات القميص نفسه فيها؛ كالذي أفاض فيه المفسرون مما ذكروه في بيان هذه الدلالات وتفصيلها، وكالذي أفاض فيه بعض المعاصرين مما كتبوه – خاصة – من مقالات صرفت جل اهتمامها إلىٰ هذه الدلالات مما يعد في حقيقة الأمر امتدادًا لكلام المفسرين[1]في هذا الشأن واستلهامًا له؛ إما بجمع شتاته وتوضيحه، وإما بتعميقه والإضافة إليه، كمقال:

---

(١) وهذا هو السبب الرئيس في عدم النص علىٰ هذه الكتابات وإفرادها بالذكر في مقدمة البحث تحت عنوان الدراسات السابقة؛ إذ ليس أصحابها بأولىٰ من المفسرين في هذا الشأن؛ فإنها – إلىٰ جانب بعدها عن موضوع البحث– عبارة عن مقالات لا تخرج عن كونها امتدادًا لكلام المفسرين حول هذه الدلالات، حسبما هو مفصل في صلب الصفحة.

الأنساق الثلاثية في قصة يوسف – عليه السلام – لأبي عبد العز، ومقال: نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – لمحمد المرواني، ومقال: قمصان يوسف كل هو برهان للكاتب عطية زاهدة، وغير ذلك مما سوف يأتي ذكره تفصيلًا في محاور الدراسة من أبحاث ومقالات تمحورت حول استنباط هذه الدلالات والكشف عنها وذلك علىٰ نحو ينبئ – كما ذكرت سلفا – عن وفور معنىٰ ، ورحابة عطاء ، وحيوية دلالة تؤكد ما قرره علماؤنا قديما من أن قصة يوسف – عليه السلام – كلها في قميصه .

كما ينبئ كذلك عما تحلىٰ به علماؤنا في عصورهم المتعاقبة من نظر ثاقب عميق ، وحس مرهف شفيف في حسن التعامل مع هذه الظواهر الدلالية ذات العطاء الواسع اللجب ، والمعنىٰ الغزير المتنوع ، وكيفية تناولها .

غير أنهم – ومع هذا الجهد المشكور الذي بذلوه – ساقوا هذه الدلالات غفلا ساذجا ، وأوردوها مرسلة من دون أن يبينوا أسبابها ، ويكشفوا عن وجوهها، ويميطوا اللثام عن مناشئها ، ومن دون أن يقيموا دليلا علىٰ صحتها ، أو ينصبوا برهانا علىٰ سلامة استنباطها؛ لذا جاء هذا البحث بعنوان " أثر القرائن في تصوير دلالات القميص في سورة يوسف عليه السلام " ؛ ليمثل فكرة جديدة ، وأطروحة يافعة غير مسبوقة ، تعكف علىٰ بلورة فكرة قديمة وخدمتها ، وتتمحور حولها ، وتتوفر علىٰ دراسة القرائن ، وبيان أثرها في تصوير دلالات قمصان يوسف التي أفاض العلماء قديما وحديثا في الكشف عنها ، وكذلك في تثبيت هذه الدلالات وتمكينها ، وتقريرها وتأكيدها؛ لعله بذلك يتدارك جانبا مما تجاوزه علماؤنا ؛ فإن هذه القرائن – علىٰ تنوعها – لفظية كانت أم معنوية ، سياقية كانت أم حالية ، هي العرىٰ الوثقىٰ التي تشد من أزر هذه المعاني

وتعضدها وتقويها ؛ إذ هي كالدلائل المنتصبة علىٰ صحتها ، والبراهين القاطعة بصدقها وقبولها ، والمعالم الهادية إلىٰ دروبها وطرق استنباطها ، لاسيما عند تشعب المعاني وتنازع الاحتمالات .

ومن وجه آخر: فقد كان لتعدد القرائن وتنوعها أثر بارز في تعدد دلالات القميص وتنوعها ومدخل كبير في تعميقها وترسيخها، وهو ما يضيف إلىٰ هذه الدراسة رصيدا آخر من الثراء والسعة، وأبعادا إضافية من طرق الدلالة والاستنباط.

وقد جاء هذا الموضوع في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة محاور ، وخاتمة ، وثبت للمصادر والمراجع ، وآخر للموضوعات :-

١-المقدمة : تناولت فيها أهمية الموضوع ، وضمنتها أسباب اختياره ، وأودعتها الخطة التي يقوم عليها هيكل البحث وبنيانه ، والمنهج المتبع في دراسته.

٢-التمهيد : ويشتمل علىٰ أربعة مطالب "-

المطلب الأول : مفهوم القرينة

المطلب الثاني : أقسام القرينة

المطلب الثالث : أثر القرائن في تقرير المعنىٰ.

المطلب الرابع: علاقة القميص ودلالاته بمطلع السورة والغرض منها.

٣-**المحور الأول** : أثر القرائن في تصوير دلالة القميص علىٰ كذب إخوة يوسف – عليه السلام – وبراءة الذئب .

٤-المحور الثاني: أثر القرائن في تصوير دلالة القميص علىٰ براءة يوسف – عليه السلام –، وكذب امرأة العزيز .

٥-المحور الثالث: أثر القرائن في تصوير دلالة القميص علىٰ حياة يوسف – عليه السلام –، والإعلام بقرب لقائه .

٦-الخاتمة : وفيها ذكرت أهم نتائج البحث التي توصلت إليها الدراسة .

٧-فهرس المصادر والمراجع .

٨-فهرس الموضوعات .

وقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع أن أتبع في دراسته المنهج التكاملي الذي يأخذ من كل منهج بحثي بطرف ، ويتصل منه بسبب ؛ للوصول إلىٰ الغاية التي تتغياها الدراسة ، والهدف الذي يصوب نحوه البحث ، وهو بيان أثر القرائن – علىٰ تنوعها – في تصوير دلالات القميص في سورة يوسف ، وإبراز دورها المحوري في تقرير هذه الدلالات وتأكيدها ، وتعميقها وترسيخها .

والله أسأل أن يعصمني من الزلل ، وأن يجعل السداد والتوفيق والإخلاص هو نصيبي ورزقي من هذا البحث ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

د/ السيد أحمد أحمد موسى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

التمهيد

المطلب الأول :مفهوم القرينة

تدور القرينة في اللغة – بناء علىٰ ما قرره ابن فارس في المقاييس[1] – حول معنىٰ الضم والجمع ، أو المصاحبة والملازمة ، وحول الدلالة علىٰ شيء ينتأ بقوة وشدة.

جاء في معاجم اللغة[2] : قرن الشيء بالشيء وقرنه إليه يقرنه قرنا ، شده إليه، وقرنت الأساري بالحبال ، شدد ؛ للكثرة، وقارن الشيء الشيء مقارنة وقرانا ، اقترن به وصاحبه ، واقترن الشيء بغيره، وقارنته قرانا ، صاحبته ، ومنه قران الكوكب ، وقرنت الشيء بالشيء وصلته.

والقرين : المصاحب ، والقرينان : أبو بكر وطلحة – رضي الله عنهما –؛ لأن عثمان بن عبيد الله أخا طلحة أخذهما فقرنهما بحبل ، وورد في الحديث أن أبا بكر وعمر يقال لهما : القرينان – أيضا .

والقرين : صاحبك الذي يقارنك ، وقرينك الذي يقارنك ، والجمع : قرناء، وقراني الشيء، كقرينه ، قال رؤبة :- يمطو قراناه بهاد مراد[3] .

---

(١) ينظر مقاييس اللغة لابن فارس قرن ٥/ ٧٦ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر العربي ١٩٧٩ م

(٢) ينظر المرجع نفسه ٥/ ٧٦ ، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده ، القاف والراء والنون ٦/ ٣٦١ ، تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ولسان العرب لابن منظور قرن ٥/ ٣٦٠٧ وما بعدها ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ ٠

(٣) البيت في المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ، قرن ٦/ ٣٦٥ منسوب لرؤبة ، وكذلك في لسان العرب لابن منظور قرن ٥/ ٣٦١١ ، ولم أقف عليه في ديوانه ٠

والقرين : الشيطان المقرون بالإنسان لا يفارقه ، وفي الحديث : " ما من أحد إلا وكل به قرينه[1] ، أي : مصاحبه من الملائكة والشياطين ، فقرينه من الملائكة يأمره بالخير ويحثه عليه ، وقرينة الرجل : امرأته ؛ لمقارنته إياها ، والقرائن : جبال معروفة مقترنة ، قال تأبط شرا :-

وحثحثت مشعوف النجاء وراعني أناس بفيفان فمزت القرائنا [2]

وقرنت بين البعيرين ، وقرنتهما ، إذا جمعت بينهما في حبل قرنا ، والقرن: الحبل يقرن به البعيران ، والجمع أقران ، وهو القران ، وجمعه قرن ، قال الشاعر:-

أبلغ أبا مسمع إن كنت لاقيه إني لدىٰ الباب كالمشدود في قرن[3]

والقران : الجمع بين الحج والعمرة .

والقرن للثور وغيره : الروق ، والجمع قرون ، لا يكسر علىٰ غير ذلك ، وموضعه من رأس الإنسان قرن – أيضا – وحية قرناء : لها لحمتان في رأسها ، كأنهما قرنان ، والقرنان : منارتان تبنيان علىٰ رأس البئر ، وقرنة الرحم ما نتأ منه، والقرن : الجبيل المنفرد ، وقيل : هو قطعة تنفرد من الجبل.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم – باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا ، حديث رقم ٢٨١٤ ص ٨٠٣ ، ترتيب : محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٠م ، دار ابن حزم ، القاهرة .

(٢) البيت في المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده منسوب لتأبط مثيرا ، قرن ٦/ ٣٣٦ ، وكذلك في لسان العرب ، قرن ٥/ ٣٦١٣

(٣) البيت في لسان العرب غير منسوب ، قرن ٥/ ٣٦١١

لاشك في أن كلا المعنيين المذكورين له وجه ظاهر في الدلالة ، واعتبار قوي فيما نحن بصدده من موضوع البحث ، وقضية الدراسة ؛ فإن القرائن تشد المعنىٰ وتقويه ، وتصاحبه وتلازمه ، ولا تنفك عنه أبدا ؛ لأنها إما أن تكون عين الكلام نفسه ، أو شيئا منه ، أو كلاما خارجا عن الكلام الذي وقع فيه النظر والتأمل مصاحبا له ، وإما أن تكون هيئات وأحوالا مصاحبة للكلام ، ومتلبسة به ، أو أدلة عقلية مرتبطة بالنص وأحواله ، ومعانيه المحتملة .

أما تعريف القرينة اصطلاحا: فقد كان تغاير مناهج العلماء الذين بحثوا في القرائن واختلاف تخصصاتهم سببا مباشرا في تنوع تعريفات القرينة وتعددها ، فقيل : هي الأمر الدال علىٰ الشيء لا بالوضع[1] ، **وقيل** : هي الأمر الدال علىٰ الشيء من غير الاستعمال[2] ، **وقيل** : هي ما يوضح عن المراد لا بالوضع ؛ تؤخذ من لاحق الكلام الدال علىٰ خصوص المقصود ، أو سابقه[3] ، **وقيل** : القرينة ما يدل علىٰ المراد من غير كونه صريحا[4].

(١) ينظر موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ٢/ ١٣١٥ ، تحقيق : دكتور: علي دحروج ، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٦م ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ٠

(٢) ينظر المرجع نفسه ٢/ ١٣١٥

(٣) ينظر الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي ٧٣٤ ، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري ، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٩٨م ٠

(٤) ينظر قواعد الفقه لمحمد عميم الإحسان المجددي البركتي ١/ ٤٢٨ ، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٠

وأورد صاحب الرسالة البيانية تعريفين للقرينة ، فقال : القرينة ما يفصح عن المراد من لفظ آخر ، أو هي ما يفصح عن المراد من غير أن يستعمل فيه(١).

ومع كثرة هذه التعريفات التي أوردوها إلا أن أقربها إلىٰ القبول ما ذكره العصام في شرحه علىٰ السمرقندية من أن القرينة هي : " ما نصبه المتكلم للدلالة علىٰ قصده "(٢) ؛ لوفائه بطبيعة المصطلح ، وشموله كل ما يصاحب النص عند وروده ، ويؤثر فيه من قول أو معنىٰ ، والمعنىٰ يشمل الحال التي لابست الكلام عند صدوره واقترنت به ، كما يشمل أدلة العقل التي تؤخذ من دلالة الحال نفسها ، وليس المراد أدلة العقل العامة(٣) .

*** *** ***

(١) ينظر الرسالة البيانية للشيخ محمد الصبان ص٥٨ ، الطبعة الأولىٰ ١٣١٥هـ ، المطبعة الأميرية ،مصر

(٢) ينظر شرح العصام علىٰ متن السمرقندية ص ١٩ ، ٢٢ ، تحقيق : إلياس قبلان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٩م ٠

(٣) تنظر حاشية الدسوقي من شروح التلخيص ١/ ٢٢٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ ، كما ينظر القرائن وأثرها في التفسير ص٣٢ د/ محمد بن زيلعي هندي ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٠م ، دار كنوز أشبيليا للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ٠

المطلب الثاني : أقسام القرينة

اختلفت تقسيمات العلماء للقرينة ، وتنوعت مصطلحاتهم فيها ، مثلما اختلفت تعريفاتهم لها؛ وذلك تبعا لاعتبارات مختلفة تتعلق بطبيعة القرينة نفسها؛ فتارة يقسمونها باعتبار الخصائص إلىٰ قرائن متصلة وإلىٰ قرائن منفصلة ، وتارة يقسمونها باعتبار وظائفها إلىٰ قرائن مخصصة ، وإلىٰ قرائن مكملة للظاهر، وتارة يقسمونها باعتبار الحقيقة إلىٰ قرائن لفظية ، وإلىٰ قرائن معنوية .

وهذا التقسيم الأخير هو الذي نتوقف عنده من هذه التقسيمات ؛ لأنه الذي درج عليه البلاغيون ، ونظروا إلىٰ القرينة من جهته ، وبحثوها باعتباره .

ومن وجه آخر : فإنه أدق هذه الأقسام وأوفاها ؛ لتناوله القرينة من حيث ذاتها وطبيعتها اللفظية وغير اللفظية ، واتساعه ليشمل أنواع القرائن باعتباراتها المختلفة .

كما أن ما يعتري الأقسام الأخرىٰ من أوجه النقص والقصور حسبما هو مفصل في مظانه من الكتب التي عرضت لدراسة القرائن دراسة مفصلة ، وهو ما يمكن مراجعته في تلك المظان لمن أراد المزيد مما يجعل الاقتصار علىٰ ما درج عليه البلاغيون أولىٰ وأوفىٰ .

فالقرينة اللفظية – ويطلق عليها القرينة المقالية أو السياقية – هي التي لها تحقق ووجود في اللفظ ، وهي إما أن تكون عين الكلام نفسه ، أو شيئا منه ، وإما أن تكون كلاما خارجا عن الكلام الذي وقع فيه النظر والتأمل[1] .

---

(١) ينظر العلاقات والقرائن في التعبير البياني د/ محمود موسىٰ حمدان ص٢٢٠ ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٥م ، مكتبة وهبة – القاهرة .

وهذا النوع من القرائن – عند تصوره وفهمه – يصير إلىٰ قرائن معنوية ؛ لأنها علامات علىٰ معان دالة علىٰ أن في الكلام دلالات أخر غير مباشرة(١) .

والقرينة المعنوية : هي أمر خارج عن اللفظ ، ومعنىٰ يمنع من إرادة الظاهر منعا صادرا من جهة العقل ، أو العرف والعادة ، أو من جهة الحال أو المقام الذي صدر فيه الكلام ، أو من جهة الموصوف نفسه وباعتباره(٢).

ويطلق علىٰ هذا النوع من القرائن اسم القرائن الحالية ، وهذا من قبيل الإطلاق المجازي؛ لأنه من تسمية الشيء باسم بعضه أو جزئه ؛ لأن بعض هذه القرائن أحوال وهيئات مصاحبة للكلام وقت وروده(٣).

كما يطلق عليه – أيضا – اسم القرائن العقلية ، وهذا كسابقه من الإطلاق المجازي ، من تسمية الشيء باسم جزئه – أيضا – ؛ لأن بعض هذه القرائن أدلة عقلية مرتبطة بالنص وأحواله، ومعانيه المحتملة(٤) .

*** *** ***

(١) ينظر نفس المرجع ص٢٢١ ٠

(٢) ينظر الأطول للعصام ١/ ٢٧٥ وما بعدها ، تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠١م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، كما ينظر شروح التلخيص ١/ ٢٥٦ وما بعدها ، والعلاقات والقرائن في التعبير البياني ص٢١٧ ٠

(٣) ينظر القرائن وأثرها في التفسير ، د/ محمد بن زيلعي هندي ص٣٥ ٠

(٤) ينظر المرجع نفسه ص ٣٥ ٠

المطلب الثالث : أثر القرائن في تقرير المعنى "

مما لا شك فيه أن القرائن كلها لفظية كانت أم معنوية ، مقالية كانت أم حالية لها مدخلية كبيرة في تصوير المعاني وتقريرها ، وتثبيتها وتمكينها ، ولها أثر بارز في حسمها ، وفي نفي الشبهة عنها ، ورفع الاحتمالات من حولها .

بل لا يمكن فهم النصوص وضبطها ، واستيعاب ما تحمله من معان ودلالات إلا من خلال تفرس القرائن وتأملها ، والنظر في مراميها ؛ إذ القرائن كالدلائل المنتصبة علىٰ صحة هذه المعاني ، والبراهين الشاخصة علىٰ وجودها وتحققها ، ومن دونها تنغلق مفاتيح النصوص ، وتدرس معالمها الهادية إلىٰ ما يستكن خلفها من دلالات وإشارات ، لاسيما وأن تلك المعاني والدلالات المنبثقة من النصوص ليست شيئا واحدا ، بل تعدد فروعا ، وتتشعب أغصانا ، وتختلف من نص لآخر ؛ بحسب ما يحف به ويصاحبه من تلك القرائن والملابسات .

فهناك المعاني الأول ، وهي المعاني المباشرة التي تفهم من حاق اللفظ وظاهره ، ويتوصل إليها من دون واسطة ، ويطلق عليها البلاغيون : أصل المعنىٰ، أو المعنىٰ الحقيقي[1].

ويندرج تحت هذا النوع من المعاني ما يسمىٰ : دلالة المنطوق صريحا كان أم غير صحيح؛ فدلالة المنطوق الصريح هي دلالة اللفظ علىٰ المعنىٰ أو الحكم بطريق المطابقة أو التضمن ، ودلالة المنطوق غير الصريح هي دلالة اللفظ علىٰ المعنىٰ أو الحكم بطريق الالتزام.

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص٢٦٣ وما بعدها ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م – مطبعة المدني ، القاهرة ٠

وهناك المعاني الثواني ، وهي المعاني غير المباشرة التي تؤخذ من وراء المعاني الأول التي دلت عليها الألفاظ والتراكيب بمعونة القرائن ، وهي التي يسميها عبد القاهر ويطلق عليها : معنىٰ المعنىٰ ويطلق عليه غيره دلالة الدلالة[1]، وهذا النوع من الدلالات هو الذي تطمح إليه أنظار البلاغيين ، ويولونه عناية خاصة ؛ نظرا لتعلق البلاغة به ، ورجوعها إليه ؛ لخروجه عن الأصل المعهود ، وبنائه علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر .

ويدخل تحت هذا النوع من المعاني ما يطلق عليه دلالة الفحوىٰ أو دلالة المفهوم ، موافقا كان ذلك المفهوم أم مخالفا ، فالمفهوم الموافق : أن يدل اللفظ أو التركيب علىٰ معنىٰ أو حكم مسكوت عنه ، مساو للمعنىٰ أو الحكم المنطوق به ، أو يكون أولىٰ منه ؛ لاشتراكهما في علة واحدة تدرك من اللفظ بمجرد معرفة اللغة، والمفهوم المخالف : أن يدل اللفظ أو التركيب علىٰ حكم للمسكوت عنه نقيض حكم المنطوق به وضده .

كما يدخل تحت هذا النوع من المعاني كثير من الدلالات الأسلوبية ، وهي الأغراض والنكات الخاصة بالأساليب البلاغية عامة ، وذلك علىٰ النحو الذي وسعته كتب البلاغة تفصيلا وتحليلا ؛ فإن ما يتناسل من وراء تلك الأساليب من دلالات وإشارات ، وأسرار ونكات إنما يستنبط بمعونة القرائن ، ويستفاد من طريقها.

*** *** ***

(١) ينظر المرجع السابق نفسه ص٢٦٣ ، كما ينظر كتاب المعاني الثانية في الأسلوب القرآني لفتحي أحمد عامر ص١٤١ ، طبعة ١٩٧٦م ،منشأة المعارف ، الإسكندرية ، كما ينظر تفسير النصوص في الفقه الإسلامي لمحمد أديب صالح ١/ ٦٠٧-٦٠٩ ، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م ، المكتب الإسلامي ، بيروت.

المطلب الرابع: علاقة القميص ودلالاته بمطلع السورة والغرض منها

مما لا شك فيه أن ثمت مناسبة قوية بين سور القرآن بعضها بعضا، وكذلك شأن آي القرآن بعضها مع بعض – أيضا– وهذا ما قرره علماؤنا قديمًا وحديثًا، وصنفوا فيه التصانيف الرائعة، وكتبوا فيه البحوث العلمية المتنوعة.

كما يوجد ارتباط وثيق بين مطلع سور القرآن وبين ختامها من جانب، وبينه وبين كل مقاطع المعنىٰ في السورة الواحدة من جانب آخر؛ إذ يرتد الختام إلىٰ المطلع، وتشد المقاطع جميعًا إليه.

كما توجد تلك الوشيجة – أيضا – بين الغرض العام والمقصود الأصلي للسورة وبين المعاني والأغراض الفرعية المنبثقة عنها؛ حيث تدور هذه المعاني والأغراض في فلك الغرض الأصلي، وتعمل علىٰ تقريره وتمكينه.

ومما لا شك فيه – أيضا – أن سورة يوسف – عليه السلام – لا تخرج عن هذا الإطار ، ولا تحيد عنه.

والناظر في قميص يوسف – عليه السلام – والمتأمل في دلالاته وعطاءاته المتناسلة منه في مواضعه من السورة الكريمة يثير اهتمامه أن ثمت صلة وثيقة وعلاقة حميمة بين القميص ودلالاته من جانب، وبين مطلع السورة والغرض منها من جانب آخر.

وحين نقصد – أولًا – إلىٰ بيان العلاقة والعروة الوثقىٰ التي تربط القميص ودلالاته بمطلع السورة الكريمة نجد أن هذا القميص قد تناسل منه في مواضعه ثلة من الدلالات المتنوعة، والمعاني الغزيرة الظاهرة التي يكل الذهن عن تتبعها، ويعجز العد عن حصرها.

وتفصيل هذا – إيجازًا – أن القميص الأول في ثاني حلقات القصة ومشاهدها جاء برهانًا ساطعًا، ودليلًا قاطعًا علىٰ كذب إخوة يوسف وبراءة الذئب، وبه وحده استدل يعقوب – عليه السلام – علىٰ تلك الحقيقة المؤلمة.

أما القميص الثاني الذي جاء في ثالث حلقات القصة، وفي مشهد المراودة خاصة فقد عول الشاهد علىٰ دلالته وحده في الحكم لطرف علىٰ طرف، والقضاء بصدق يوسف – عليه السلام – وبراءته، وكذب امرأة العزيز وخيانتها.

وأما القميص الثالث وهو الذي جاء في ختام القصة، وفي آخر حلقاتها، فقد اتخذ يوسف – عليه السلام – منه وحده أمارة دامغة علىٰ حياته، وجعله بريد شوق لهيب إلىٰ أبيه يعقوب – عليه السلام – يعلمه بقرب لقائه، وهذا في الأقمصة الثلاثة لا يتأتىٰ إلا من شدة وضوح دلالاتها، وسطوع برهانها، وظهور حجيتها ظهورًا كاشفًا أوفىٰ علىٰ الغاية، وأربىٰ علىٰ النهاية، وهذا من شأنه أن يجعل القميص في مواضعه منسجمًا في دلالاته، ومتناغيًا في عطاءاته مع مطلع السورة الكريمة ومفتتحها في قوله: ﴿ألر تلك آيات الكتاب المبين﴾؛ إذ ينبئ وصف "الكتاب" بـ"المبين" عن أن هذا القميص في وضوح دلالته، وفي ظهور حجته، ووهج برهانه يتناغم مع شدة وضوح آيات هذا الكتاب، وقوة دليله، وتفرد برهانه؛ فإن "المبين" هو الظاهر أمره في كونه من عند الله- تعالىٰ – وفي إعجازه بنوعيه، لا سيما الإخبار عن الغيبيات"[1] وكذلك حال هذا القميص؛ فإن دلالته علىٰ ما دل عليه، وإخباره بما نطق به إنما هو من الله تعالىٰ.

(١) تفسير أبي السعود المسمىٰ : إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم ٤/ ٢٥٠ ، الطبعة الرابعة ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

أو "الواضح معانيه للعرب؛ بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه، ولا يلتبس لديهم دقائقه؛ لنزوله علىٰ لغتهم.

أو بمعنىٰ: بين، أي: المبين لما فيه من الأحكام والشرائع، وخفايا الملك والملكوت، وأسرار النشأتين في الدارين، وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص"(١).

وكذلك شأن هذا القميص؛ لم تشتبه علىٰ أحد دلالاته، ولم تلتبس علىٰ أحد حقائقه، وكان في غاية التبيان والإظهار لما اقترن به في مواقعه من أسرار ونكات، وخفايا الأمور ودقائقها؛ بدلالة إذعان الجميع لحكمه، وانصياعهم لبرهانه، وذلك علىٰ النحو الذي تستوفيه محاور البحث دراسة وتفصيلًا.

علىٰ أن ما تعلق بهذا القميص من أحكام ومعارف، وخفايا ودقائق يتناغم في مجمله، ويتوافق – من وجه آخر – مع افتتاح السورة الكريمة بالأحرف المقطعة ﴿ألر﴾ ، ومع قوله سبحانه في مطلع السورة – أيضا -: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ ؛ فإذا كانت هذه الأحرف المقطعة تمثل نمطًا فريدًا من أنماط الكلام، لم يوجد في غير القرآن، وضربًا من ضروب الإعجاز فيه، وإذا كانت قصة يوسف – عليه السلام – هي أحسن القصص، كما نعتها القرآن؛ لاقتصاصه إياها علىٰ أبدع الطرائق الرائقة، وأعجب الأساليب الفائقة اللائقة، وتضمنها من الحكم والعبر، كما لا يخفىٰ علىٰ من طالع القصة من كتب الأولين والآخرين(٢)؛

(١) المرجع السابق ٤/ ٢٥٠ .

(٢) ينظر تفسير البيضاوي ٣/ ١٥٤ ، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٨م، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، كما ينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥١ .

فإن قميصه – عليه السلام – لا يشبه سائر الأقمصة، بل هو قميص متفرد في جنسه، متميز عن سائر الأقمصة في حسنه؛ لما تعلق به من خفايا ودقائق، واقترن به من حكم ومعارف، جعلت أحداث القصة كلها تعود إليه – كما قيل من أن حروف المعجم كلها تعود إلىٰ هذه الأحرف المقطعة – وترتبط به في نموها وصعودها، وتعول عليه – في كثير من مواطنها – في تحقيق غاياتها وأهدافها.

وأما علاقة القميص ودلالاته بالغرض العام والمقصود الأصلي من قصة يوسف – عليه السلام – فقد جاءت القصة كما ذكر المفسرون[1] – تثبيتًا للنبي – صلىٰ الله عليه وسلم – وشدًا علىٰ قلبه، وتسلية له عما لقيه من أقاربه الكفار وغيرهم ممن آذوه أشد الإيذاء، وحاربوا دعوته، وجابهوا رسالته، وردًا – في الوقت ذاته – علىٰ أحبار اليهود الذين قالوا لصناديد المشركين ورؤسائهم: سلوا محمدًا عن قصة يوسف – عليه السلام –، وسلوه: لماذا انتقل آل يعقوب من الشام إلىٰ مصر ؟ فنزلت السورة الكريمة في بيان ذلك كله وتفصيله.

وكذلك كان شأن القميص؛ جاء في موضعه الأول تثبيتًا ليعقوب – عليه السلام – وربطًا علىٰ قلبه في محنته الأولىٰ، حين فقد يوسف – عليه السلام – وجاءه أبناؤه بقميصه ملطوخًا بدم كذب.

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ٢٢/ ٤٤٠، الطبعة الثالثة ١٩٨٧ ، دار الريان للتراث، القاهرة، وتفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٠/ ٢،٣ ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، كما ينظر تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/ ٦، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ ، بيروت.

وقرينة هذا وبرهانه ما ورد من أن يعقوب – عليه السلام – لما أخبره بنوه أن الذئب قد أكل يوسف، قال: ألم يترك الذئب له عضوا فتأتوني به أستأنس به ؟ ألم يترك له ثوبا أشم فيه رائحته ؟[1]

وجاء في موضعه الثالث في ختام القصة تثبيتًا ليعقوب – عليه السلام – أيضا –، ودعمًا لموقفه في مواجهة أبنائه وأحفاده الذين اتهموه بتمكن الضلال منه' ورسوخ قدمه فيه، حين آذانهم بوجدان ريح يوسف، وبريد شوق يبعث في قلبه بصيص النور والأمل بأن يوسف ما يزال حيا، وأن لقاءه إياه عما قريب.

وأما القميص الثاني الذي كان حضوره في مشهد المراودة طاغيًا فقد جاء هو الآخر تثبيتًا ليوسف – عليه السلام – وتأييدًا له في مواجهة امرأة العزيز التي ادعت عليه مراودته إياها عن نفسها، وذلك حين عول الشاهد علىٰ دلالة القميص وحده في الحكم لطرف علىٰ طرف، وقد كان حكم القميص وقضاؤه في جانب يوسف – عليه السلام .

ومن وجه آخر: فإن القميص في مواضعه من السورة الكريمة جاء ردًا علىٰ مزاعم شتىٰ، ودحضًا لفرىٰ مختلفة؛ فبرز في موضعه الأول ردًا علىٰ إخوة يوسف في زعمهم أن يوسف قد مات، وأن الذئب قد أكله، وجاء في موضعه الثاني ردًا علىٰ امرأة العزيز في زعمها أن يوسف – عليه السلام – قد راودها عن نفسها، وأراد النيل منها ومن شرفها.

(١) ينظر تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١٥٠، تحقيق: أحمد البردوني – د/ إبراهيم أطفيش ، الطبعة الثانية ١٩٦٤م ، دار الكتب المصرية – القاهرة.

وجاء في الموضع الثالث ردًا علىٰ أبناء يعقوب – عليه السلام – أو أحفاده في نسبتهم إياه إلىٰ الضلال القديم؛ من حيث كان موقنًا بحياة يوسف، دائم التوقع للقائه، مكثرًا من ذكره، مفرطًا في محبته.

علىٰ أن الله – تعالىٰ – قد أنزل قصة يوسف – عليه السلام – مشتملة علىٰ آيات بينات، وعبر ناصعات، وجعلها إثباتًا ودليلًا علىٰ أن بعض المرائي لا يشبه جنس الرؤا، وليس من نوعها، بل يكون إنباءً بأمر مغيب، وحدث عجيب، وهذا من خصائص الألوهية، ومن مقتضيات النبوة(١).

ونحو من هذا قميص يوسف – عليه السلام –؛ جاء في مواضعه من السورة الكريمة منبئًا بأحداث عجيبة وأمور غريبة، ليست من جنس المعهود في سائر الأقمصة، وليست من خصائصها أو صفاتها، وهذا يؤكد أنه قميص فريد في جنسه، بديع في صفته، والله أعلم.

*** *** ***

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٢/ ٦ .

المحور الأول : أثر القرائن في تصوير دلالة القميص على كذب إخوة يوسف ــ عليه السلام ــ وبراءة الذئب "

دلالة القميص علىٰ كذب إخوة يوسف – عليه السلام – وبراءة الذئب من ادعائهم أكله إياه شخص علىٰ رأس المواضع التي ورد فيها ذكر القميص في السورة الكريمة ؛ حيث جاء في بدايات أحداث القصة في قوله – سبحانه – خاصة:- ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف :١٨) ، وذلك في إشارة لافتة إلىٰ أن قصة النبي الكريم تدور مشاهدها ، وتتنامىٰ أحداثها ، وتتصاعد مواقفها علىٰ هذا القميص ، وهذا المنحىٰ في التفسير والتأويل هو ما أكده علماؤنا حين ذكروا أن قصة يوسف – عليه السلام – تتلخص كلها في قميصه(١).

ووراء هذا التوجه ما وراءه من دلالة وإيحاء؛ إذ يدل علىٰ بصر علمائنا بطبيعة هذا القميص، ومحورية دوره وفاعليته، وأنه ليس مرادا – في القصة هنا – باعتباره لباسا عاديا، منسوجا من مادة خاصة ، تقي لابسها الحر أو البرد ، بل هو رسالة تحمل في ثناياها دلالات وإشارات ، وبرهان علىٰ أقوال وأفعال ونوايا فيها دروس من الإيمان والصبر، والعفاف والبر، والرحمة والشكر ، والرعاية والنصر، لا ينبغي تجاوزها أو إهمالها ، سواء أصدرت هذه الأقوال والأفعال والنوايا من لابس القميص، أو من المتعرض له(٢) وذلك علىٰ النحو الذي تسعه محاور الدراسة في هذا البحث تفصيلا وتحليلا ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) ينظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٩/ ٧ ، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٢م، دار الغد العربي– القاهرة٠

(٢) ينظر الأنساق الثلاثية في قصة يوسف عليه السلام ،لأبي عبد المعز ، ملتقىٰ أهل الحديث – منتدىٰ القرآن وعلومه ٩/ ٢٠٠٧م، ونظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف –عليه السلام– لمحمد

والآية المذكورة مجال البحث جاءت في سياقها من السورة الكريمة بعدما دبر إخوة يوسف مكيدتهم ضده ، وأحكموا مؤامرتهم تجاهه ، ونفثوا فيه حقدهم وحسدهم، فها هم قد ألقوه في غيابة الجب ، وتركوه هنالك وحيدا ، ورجعوا إلىٰ أبيهم عشاء يبكون حسبما صوره قوله – سبحانه – :﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ (يوسف :١٦) ، وذلك في مشهد تصويري متقن ، وحبكة درامية – إن جاز لنا التعبير – محكمة ، فلما رآهم يعقوب – عليه السلام – علىٰ هذه الحال فزع ، وقال: هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا : لا ، قال : فما فعل يوسف ؟ فعند ذلك أخبروه ما بيتوا عليه أمرهم ، وأحكمه تدبيرهم ، وزينه سوء مكرهم :-﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ (يوسف : ١٧)[1].

وقد روي أن يعقوب – عليه السلام – لما أخبره بنوه أن الذئب قد أكل يوسف قال لهم : ألم يترك الذئب له عضوا فتأتوني به أستأنس به ؟ ألم يترك له ثوبا أشم فيه رائحته ؟ قالوا : بلىٰ . هذا قميصه ملطوخ بدمه ، فذلك قوله – تعالىٰ – : ﴿وجاءوا علىٰ قميصه بدم كذب﴾الآية. فعند ذلك بكىٰ يعقوب ، وطرح القميص علىٰ وجهه ، حتىٰ تخضب وجهه من دم القميص[2].

المرواني ص٢ ، مركز تفسير للدراسات القرآنية ، الملتقىٰ العلمي للتفسير وعلوم القرآن ٢٠١١م، وقمصان يوسف ، د/ حسن الأمراني ، جريدة المحجة ، العدد ٣٧٣ ، لعام ٢٠١٢م ٠

(١) ينظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٩/ ٥ .

(٢) ينظر تفسير الكشاف للزمخشرىٰ ٢/ ٤٥١ ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،كما ينظر تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١٥٠.

والذي يتأمل القميص في موقعه من الآية الكريمة وفي سياقه الذي جاء فيه يجد أن إخوة يوسف – عليه السلام – قد اتخذوا من قميصه الملطوخ بالدم دليلا علىٰ صدق دعواهم أن يوسف قد مات ، ونصبوه برهانا مزورا علىٰ أن الذئب قد أكله ، لكن المفاجأة كانت مذهلة ، والصدمة كانت صاعقة ، فوقع مالم يكن في الحسبان ؛ إذ انقلب هذا الدليل الذي أحكموا كيده عليهم ، وارتد إلىٰ صدورهم، وصار القميص هو أداة الجريمة ودليل الإدانة الذي ينطق – علىٰ عكس مسعاهم، وفي مشهد تصويري مفعم بمعاني التهكم والسخرية – بكذبهم وبراءة الذئب، وينادي علىٰ افتضاح أمرهم ، ويشهد بلؤم صنيعهم ، وسوء مكرهم ، وعظم جرمهم وخيانتهم.

وإلباس الكلام هذا اللباس ، وإخراجه هذا المخرج في الدلالة ونقيضها يندرج فيما يعرف في النقد البلاغي الحديث بمفارقة المفاجأة ، وهي نوع من مفارقة الموقف أو السياق[1]، تدفع المتلقي ، وتأخذ بضبعيه إلىٰ متابعة أحداث القصة ومشاهدها حتىٰ النهاية ؛ وذلك بما تخلقه في الأحداث من جدة وطرافة ؛ لما يتوفر فيها من عناصر الجذب والإثارة ، وعوامل التشويق ، وما يتلبس بها من عنصر المفاجأة الذي يضفي علىٰ الأحداث مزيدا من الحركة والحيوية التي

(١) مفارقة المفاجأة تقوم في الكلام علىٰ مخالفة ما يتوقعه المتلقي في الموقف الذي يمر به ، حيث ترد نهاية الموقف – في الغالب – مخالفة لبدايته ، فتفاجئ القارئ وتصدمه ، أما مفارقة السياق أو الموقف فتنهض عادة علىٰ حالة أو حدث يظهر من خلال السياق الذي قيلت فيه، ويعتبر نتاج أحداث ضمن سياق عام يستطيع من خلاله المتلقي الوصول إلىٰ وجود مفارقة. ينظر بناء المفارقة دراسة نظرية تطبيقية، أدب ابن زيدون نموذجًا لأحمد عادل عبد المولىٰ ص١٣٤ ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٩م، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع.

تدفع الأحداث بقوة إلىٰ التنامي والتصاعد إلىٰ العقدة أو الذروة التي تصل عندها الأحداث إلىٰ نقطة التعقد أو التأزم ، ثم تأخذ منحىٰ تنازليا نحو الحل شيئا فشيئا، حتىٰ تصل إلىٰ النهاية المحتومة.

إن القميص في موقعه – هنا- ليس مجرد رداء عادي يلبسه شخص معين، بل يتجاوز هذا كله، ويتسع ليصبح رمزا دالا علىٰ الشيء ونقيضه في اللحظة الزمنية الواحدة ؛ فهو باعتبار الظاهر شاهد علىٰ صدق إخوة يوسف ، لكنه باعتبار آخر يمثل دليل إدانتهم واتهامهم ، وبراءة طرف آخر ، فهو في حقيقة الأمر بينة زعم ، وقرينة شك ، تتعلق بهما من وجدانات النفوس عوالق كثيرة(١).

ومن وجه آخر: فإن الذي يعاود القميص في سياقه – بالتأمل مرة ثانية تتبدىٰ له من ورائه دلالات أخر، هي في غاية الأهمية والخطورة ؛ إذ يؤشر – أولا- إلي غائلة الحسد في النفس الإنسانية، ويصور كيف دفعت هذه النزعة الشريرة الإخوة الكبار إلىٰ الرمي بأخيهم الصغير في غيابة الجب، وإلقائه في فم المصير الأسود، بعدما هموا بقتله، وهو أحوج ما يكون إلي العطف والرعاية، والحنو والشفقة؛ لينتصب هذا القميص راية حمراء ملطخة بالدم الكذب؛ تحذر الناس من مغبة الركون إلىٰ الحسد؛ لأنه قد يؤز الإنسان إلي قتل أخيه، أو ارتكاب ما يسوؤه ويؤذيه(٢).

---

(١) يراجع مقال : نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف عليه السلام لمحمد المرواني ص ٢ .

(٢) ينظر تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٠/ ٣، كما ينظر مقال: قرآنيات القمصان الثلاثة لأحمد إسماعيل، مجلة بقية الله، العدد ٢٠١ إبريل ٢٠٢٠م.

كما يرمز – ثانيا- إلي ما يرتكبه الناس في حياتهم من تزييف للحقائق، وتزوير فج للواقع، وافتراء وكذب؛ تحصيلا لعرض زائل، أو متاع رخيص، أو تحقيقا لهدف حقير وضيع(١).

كما يؤذن – ثالثا- بالفقدان؛ فقدان الولد العزيز، يوسف-عليه السلام،وفقدان الثقة في إخوته الباقين الذين فرطوا به، وألقوه في غيابة الجب(٢).

وقد تعانق علىٰ تصوير هذه الدلالات ، وإلباسها ثوب الشخوص والجسوم ما تبدىٰ من قرائن المقام، وقرائن السياق؛ أما قرائن المقام فتتجلي –أولا- في حال يعقوب- عليه السلام- وكيفية تعاطيه مع الموقف الذي يتسم بالفجيعة والألم، وهذا ما كشفت عنه بوضوح تلك الرواية التي ساقها أهل التفسير حول دلالات القميص في هذا السياق؛ فقد روىٰ أن يعقوب –عليه السلام-لما رأىٰ القميص شمه وقبله، وجعل يقلبه فلا يرىٰ فيه شقا ولا تمزيقا، فقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم ولا أحكم من هذا؛ يأكل ابني ولم يمزق عليه قميصه! لو كان الذئب أكله لخرقه. ثم قال :يا معشر أولادي !دلوني علي ولدي، فإن كان حيا رددته إلي، وإن كان ميتا كفنته ودفنته(٣).

فيعقوب-عليه السلام- قرأ في القميص الدلالة العكسية لما أراده أبناؤه؛ حيث استنبط من سلامة القميص وعدم تمزيقه كذب أولاده، وبراءة الذئب، وأن ثمت أمرا أبرموه، ومكرا أجمعوا عليه رأيهم وأحكموه.

---

(١) ينظر المرجع نفسه.

(٢) ينظر الأنساق الثلاثية في قصة يوسف – عليه السلام – لأبي عبد المعز ، ملتقىٰ أهل الحديث ٢٠٠٧ م.

(٣) ينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥١ ، والتفسير الكبير للرازي٩/ ٥ .

كما تتجلي – ثانيا– في حال إخوة يوسف –عليه السلام–، وما بدا عليهم من أمارات الاضطراب والكذب. وتأكيد هذا فيما روىٰ من أن يعقوب–عليه السلام–لما قال لهم ما قال، قالوا: ألم تروا إلي أبينا كيف يكذبنا في مقالتنا؟ تعالوا نخرجه من الجب، ونقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه، فيصدقنا في مقالتنا ونقطع يأسه، فقال أحدهم: والله لئن فعلتم ذلك لأكونن عدوا لكم ما بقيت، ولأخبرن أباكم بسوء صنيعكم. قالوا: فإذا منعتنا هذه فتعالوا نصطد له ذئبا، فاصطادوا له ذئبا ولطخوه بالدم ، وأوثقوه بالحبال ، ثم جاءوا به يعقوب–عليه السلام–، وقالوا يا أبانا! إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها، ولعله الذي أفجعنا بأخينا لا نشك فيه، وهذا دمه عليه. فقال يعقوب: أطلقوه. فأطلقوه، وتبصص له الذئب، فأقبل يدنو منه، ويعقوب يقول له: ادن، ادن، حتىٰ ألصق خده بخده، فقال له يعقوب: أيها الذئب! لم فجعتني بولدي، وأورثتني حزنا طويلا؟ ثم قال: اللهم أنطقه. فأنطقه الله– تعالي–ثم قال: والذي اصطفاك نبيا! ما أكلت لحمه، ولا مزقت جلده...،والله! ما لي بولدك عهد، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فقد ، فلا أدري أحي هو أم ميت ؟ فاصطادني أولادك ، وأوثقوني ، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلىٰ جميع الوحوش .....فأطلقه يعقوب – عليه السلام – ، وقال : والله لقد أتيتم بالحجة علىٰ أنفسكم ، هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذمام أخيه ، وأنتم ضيعتم أخاكم ، وقد علمت أن الذئب بريء مما جئتم به[1].

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ١٥٠ -١٥١.

وهذا الذي ذكره أهل التفسير ينطق بشدة اضطرابهم ، ويؤذن بذهاب ريحهم من قوة وقع المفاجأة علىٰ نفوسهم ، وانقلاب دلالة القميص عليهم ، وارتدادها إلىٰ صدورهم ، فراحوا يصدرون عن غير فكر وروية ، ومن دون تبصر لمواقع الأمور ومآلاتها .

وأما قرائن السياق وعوامله فمع كثرتها وتنوعها إلا أنها تشخص – **أولا** – في عناصر بناء الجملة التي جاء فيها ذكر القميص في الآية الكريمة :- ﴿وجاءوا علىٰ قميصه بدم كذب﴾ ؛ وذلك من إيثار الفعل من المجيء خاصة ﴿وَجَآءُو﴾ وما وراءه من إيحاء قوي – بأصل دلالته- بثقل الأمر وصعوبته ، وشدة وطأته ، وفرط مشقته ، وأنهم بالغوا في التكلف والتعمل ، وأمعنوا في التحري ؛لإخفاء أمرهم ، وطمس معالم جرمهم ، وتأكيد هذا من حذف الألف الفارقة خطا بعد واو الجماعة المتصلة بالفعل ، وذلك حسبما جاء في المصاحف ؛ تخفيفا من هذا الثقل ، وهدهدة لمشاعر القلق والتوتر التي انتابتهم؛ جريا علىٰ السنن المعهود في هذه المواقف.

ومن تعدية الفعل السابق إلىٰ القميص بحرف الاستعلاء "علىٰ " خاصة.

وقد اختلف أهل العلم في توجيه المجرور إعرابيا على قولين :

أحدهما : أنه ظرف ، ومحله النصب، علىٰ أن يكون المعنىٰ : وجاءوا فوق قميصه ، كما يقال: جاءوا علىٰ جماله بأحمال ، وهذا ما رجحه الزمخشري في الكشاف ، واستبعد أن يكون حالا من قوله "بدم" ؛ لأن الحال من المجرور لا تتقدم عليه[1].

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥١.

ثانيهما: أنه حال من المجرور السابق بيانه، وذلك علىٰ أن أصل الكلام: وجاءوا بدم كذب علىٰ قميصه ، وهذا هو الذي رجحه جمهور العلماء[1] وهو اختيار ابن مالك[2] ؛ حيث ذهب إلىٰ جواز تقدم الحال علىٰ صاحبها المجرور ، ظرفا كانت الحال أم لم تكن ظرفا ؛ لورود ذلك بكثرة في لسان العرب ، كقول الشاعر: فلن يذهبوا فرغا بقتل حبال[3].

وقول الآخر:

لئن كان برد الماء هيمان صاديا إلىٰ حبيبا إنه لحبيب[4]

---

(١) ينظر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٥/ ٢٨٩ ، الطبعة الثانية ١٩٩٠م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، واللباب في علوم القرآن لابن عادل الحنبلي الدمشقي ١١/ ٤٠ ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ: علي محمد معوض ، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية ، بيروت ، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٦/ ٤٥٦ – ٤٥٧ ، تحقيق : أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، بدون تاريخ ، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٠ ، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٦/ ٣٩١ ،٣٩٢ ، تحقيق: علي عبد الباري عطية ، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٠

(٢) ينظر شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ٢٥٢ ـــ ٢٥٥ ، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا ـــ طارق فتحي السيد، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية ـــ بيروت.

(٣) مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت: ٥١٨هـ)- ٢/ ٢٢١ – تحقيق: محمد محيىٰ الدين عبد الحميد- دار المعرفة – بيروت، بدون تاريخ.

(٤) البيت من الطويل وهو لقيس بن ذريح في سمط اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (ت: ٤٨٧هـ) صـ٤٠٠ – [هو كتاب شرح أمالي القالي / لأبي عبيد البكري؛ نسخه وصححه وحقق ما فيه وخرجه وأضاف إليه عبد العزيز الميمني] – دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، وفي الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩ هـ – ٧١٠ هـ) – ١/ ١٠٢ – تحقيق: الدكتور كامل سلمان الجبوري- الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م ، دار الكتب العلمية، بيروت.

وقول الآخر:

غافلا تعرض المنية للمر ء فيدعي ولات حين إباء[1]

وقد رد الجمهور قول من ذهب إلىٰ أن المجرور المقدم في محل النصب علىٰ الظرفية، واحتجوا لذلك بعدم استقامة المعنىٰ وصحته عليه؛ لأن العامل فيه – حينئذ – هو الفعل "جاءوا" وليس الفوق ظرفا لهم، بل يستحيل أن يكون ظرفا لهم.

وإمعانا منهم في ذلك وجهوا المثال الذي ذكره الزمخشري : جاءوا علىٰ جماله بأحمال " بأن الظرفية تمكن فيه باعتبار تبدله من جمل إلىٰ جمل ، ويكون "بأحمال" في موضع الحال علىٰ أن المعنىٰ: مصحوبا بأحمال .

وفيما اعترض به الجمهور نظر، ولا يمكن التسليم لهم به ؛ لأن أثر التكلف عليه ظاهر ، لاسيما وأن الظرفية فيه علىٰ قول من ذهب إلىٰ أنه ظرف – ليست باعتبار الفاعل ، كما أولها به الجمهور ، وإنما هي باعتبار المفعول ، وعليه يكون الظرف ظرف لغو ، ويحمل حرف الاستعلاء علىٰ حقيقته ، وحينئذ يكون المعنىٰ: وأتوا بدم كذب فوق قميصه " ، ولا تخفي استقامة هذا المعنىٰ وصحته[2].

---

(١) البيت من الخفيف وهو بلا نسبة في شرح الأشموني علىٰ ألفية ابن مالك لعلي بن محمد بن عيسىٰ، أبو الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي (ت: ٩٠٠هـ) – ٢/ ١٦ – دار الكتب العلمية بيروت– لبنان – الطبعة الأولىٰ ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.

(٢) تنظر حاشية الشهاب الخفاجي علىٰ تفسير البيضاوي ٥/ ١٦٢ ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ٠

ومن وجه آخر: فإن مقام دلالة القميص علىٰ كذب إخوة يوسف فيما ادعوه من أكل الذئب إياه لمما يقتضي ترجيح الحمل علىٰ الظرفية ؛ لأنه الأبلغ في تصوير دلالة القميص علىٰ ظهور كذبهم ، ودحض حجتهم ، لما فيه من إيحاء قوي بأن هذا الدليل الذي جاءوا به لا يقوم علىٰ أساس متين ، ولا ينهض علىٰ أصل ثابت راسخ ، أو جذور قوية تمسك به ، فهو لا يعدو أن يكون غطاء مهوشا، وغثاء سيل يطفو علىٰ صافي الماء الزلال ، وزبدا رابيا سرعان ما يذهب جفاء ، ويتبدد أمام نور الحقيقة ، وسطوع برهان الحق ، وليس في شيء من ذلك حمله علىٰ الحالية ؛ لدلالتها علىٰ شدة تلبس الدم بالقميص ، وذلك حسبما وجهه الجمهور، وهو ما قد ينبئ عن التباس الأمر واختلاطه علىٰ يعقوب – عليه السلام– ، وعدم وضوح دلالة القميص ، وهو ما لا ينهض في هذا المقام .

ويؤيد هذا التوجه في التحليل ويقويه ما ورد من أن الدم كان دم سخلة ذبحوها ، ولطخوا بدمها القميص(١).

وإنما قدم الظرف علىٰ المجرور " بدم كذب " اعتناء بالمقدم وهو القميص، واهتماما بشأنه ، ولفتا وتنبيها إلىٰ ما يتعلق به من آيات ودلالات تدور عليها في كثير من حلقاتها ومشاهدها أحداث قصة يوسف – عليه السلام – .

إن إيثار حرف الاستعلاء ، ودخوله دون غيره علىٰ لفظ القميص في قوله ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ لا يمكن أن يسد حرف آخر مسده ، أو يغني غناءه في هذا السياق ؛ لأنه الأقدر علىٰ تصوير حال الضعف، وانعدام الحيلة التي كان عليها

(١) ينظر روح المعاني للآلوسي ٦/ ٣٩٢.

يوسف – عليه السلام – ؛ فقد غلب علىٰ أمره وقهر علىٰ حاله ، فلا يملك من أمر نفسه ، أو من أمر قميصه شيئا .

وهو الأبلغ- من جانب آخر – في تشخيص حال البغي والظلم ، والغلبة والقهر التي كان عليها إخوة يوسف – عليه السلام – إلىٰ حين ؛ فقد جردوه من قميصه ونزعوه عنه، وألقوه في الجب علي غير إرادته ، وهذا يصور في أخلاق الأمم، وموروثات الشعوب حال المغلوب مع الغالب ، والمظلوم مع الظالم، والعكس باعتباره سنة لا تتغير في الكثير الأغلب ، ولا تتبدل(١).

وإضافة القميص إضافة تخصيص ، فالقميص هو قميص أخيهم يوسف – عليه السلام – خاصة، ووراء هذه الإضافة – في معرضها – تعريض قوي بذمهم جميعا بفرط القسوة ، وشدة الغلظة، ونهاية الجفاء؛ حيث طاوعتهم أنفسهم علىٰ نزع قميصه رغما عنه ، وهو أحوج ما يكون إليه ؛ ليتخذوا منه دليلا مزورا علىٰ صدق ادعائهم ، فكان أن قرن الله به – علىٰ عكس مرادهم –علامة تعارض تدبيرهم، وتفضح زيف ادعائهم.

وقرينة هذا المعنىٰ – أولا- من طبيعة الموقف ، وما اقترن به من ملابسات؛ فقد ورد أن يوسف – عليه السلام – لما غلبوه علىٰ قميصه طلب إليهم أن يتركوه له ؛ ليتوارىٰ به في الجب ، ويحتمي به من أذاها ، فأبوا عليه ذلك(٢)، ووراء هذا الموقف – إلىٰ جوار المعنىٰ السابق – صورة العفاف والطهر، والستر تتشكل

(١) يراجع مقال نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – لمحمد المرواني ص٢ ٠

(٢) ينظر جامع البيان للطبري ١٥/ ٥٧٤ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة، بيروت ٠

منها شخصية يوسف – عليه السلام – وتمتزج بملامحه وسمته منذ نعومة أظفاره ؛ ليضيف هذا إلىٰ رصيده فيما بعد قوة وثباتا في مواجهة امرأة العزيز والنسوة اللاتي راودنه عن نفسه.

فتاريخ العفة في قلب يوسف – كما آذن به هذا الموقف – تاريخ قديم ، ضارب بجذوره علىٰ نحو من العمق والثبات في أطوار عمره ، ومراحل حياته ، وقد كان لهذا القميص الأول حظ من الشهادة عليه ، والحضور فيه ، كما كان للقميص الثاني[1] ، وذلك علىٰ النحو الذي سيأتي تفصيله لاحقا في المحور الثاني من هذا البحث بمشيئة الله تعالىٰ.

وقرينته – ثانيا – من إسناد فعل المجيء إلىٰ ضمير جماعتهم ، وما وراءه من إيحاء قوي برضائهم جميعا به، واتفاق كلمتهم عليه .

ومن وصف الدم منكرا بالمصدر في قوله :- " بدم كذب " ، أي : مكذوب، قال العلماء[2]، والفاعل والمفعول يسميان بالمصدر، يقال: ماء سكب، أي: مسكوب، وليس له عقد رأي ، أي : معقود رأي ، ورجل عدل وصوم ، أي : عادل وصائم، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [سورة الملك:٣٠]. كما يسمىٰ المصدر بهما ، فيقال للجلد : مجلود . وللعقل : معقول ، ومنه قوله – تعالىٰ –: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ [سورة القلم:٦]، وقال الشاعر :-

---

(١) يراجع مقال : نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – ص٢ ٠

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨ ، تحقيق : أحمد يوسف النجاتي و آخرون ، الطبعة الأولىٰ، بدون تاريخ، دار المصرية للتأليف ، كما ينظر معاني القرآن و إعرابه للزجاج ٣/ ٦٩ ، تحقيق : عبده الجليل عبده شلبي ، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٨م عالم الكتب بيروت ٠

حتىٰ إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا[1].

ويجوز أن يكون الكلام علىٰ حذف مضاف ، وتقديره : ذي كذب ، والأول أقوىٰ، وأوفق بمقام دلالة القميص علىٰ ظهور كذبهم ، وزيف ادعائهم ؛ لخروجه مخرج المبالغة ، كأن الدم صار نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب، هو الكذب بعينه، والزور بذاته ، ونحوه قول الشاعر :-

فهن به جود وأنتم به بخل[2]

وقول الخنساء : " فإنما هي إقبال و إدبار "[3]، يقول عبد القاهر: ".....جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ، ولغلبة ذاك عليها ، واتصاله منها ، وأنه لم يكن لها حال غيرها كأنها قد تجسمت من الإقبال و الإدبار "[4] ، ولو رام السامع أن يجري الكلام علىٰ تقدير مضاف ، علىٰ أن يكون أصل الكلام :" فإنما هي

---

(١) البيت للراعي النميري وهو من قصيدة قالها لعبد الملك بن مروان ، ومطلعها :

ما بال دفك بالفراش مذيلا أقذىٰ بعينيك أم أردت رحيلا

وهو في ديوانه بشرح د/ واضح الصمد ص ٢١٠ ، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٥م ، دار الجبل ، بيروت .

وهو في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص ٧٣٧ ، تحقيق : محمد علي البجادي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٤٥١ .

(٣) البيت من البسيط وهو للخنساء في ديوانها ص٤٦ شرح / حمدو طماس – دار المعرفة – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤٢٥ه – ٢٠٠٤م.

(٤) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص٣٠٠ ، تحقيق : محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م ، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة .

ذات إقبال و إدبار " لأفسد صنعة الشعر علىٰ نفسه ، وخرج إلىٰ شيء مغسول، وإلىٰ كلام عامي مرذول ، وذلك علىٰ حد تعبير عبد القاهر نفسه(١).

ومن وجه آخر: فإن وصف الدم منكرا بالمصدر من الكذب ، وكونه علىٰ قميص يوسف خاصة فيه تعريض قوي بفرط عقوق إخوة يوسف لأبيهم يعقوب – عليه السلام – ، وشدة تنكرهم لأبوته ، وجحدهم لفضله .

وبرهان هذا التحليل من سياقات القصة نفسها ؛ فقد بدا هذا العقوق صراحة، وتكرر في عدة مواضع من القصة الكريمة ، كالذي تجده في قوله – سبحانه – :﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف : ٨) ، وكالذي في قوله:﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يوسف : ٩٥) .

ومن حال يعقوب – عليه السلام – ؛ التي تجلت من طبيعة موقفه حين جاءه أولاده بقميص يوسف ملطوخا بدم كذب ، وقرينة هذا فيما أورده الطبري من أن يعقوب – عليه السلام– لما علم من دلالة القميص بكذب أولاده قال لهم : إن كان هذا الذئب لرحيما ، كيف أكل لحمه ، ولم يخرق قميصه ؟ يا بني يا يوسف ! ماذا فعل بك بنو الإماء؟(٢)

أما ثاني هذه القرائن السياقية فيشخص في تكذيب يعقوب –عليه السلام – أولاده تكذيبا صريحا في قوله –أولا:- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وقرينة هذا وتأكيده من تصدر الجملة المذكورة بعد القول بحرف

(١) ينظر المرجع نفسه ص٣٠٢

(٢) ينظر جامع البيان للطبري ١٥/ ٥٨٠.

الإضراب "بل"؛ لإبطال زعمهم أن الذئب قد أكل يوسف –عليه السلام –، كأنه قيل: كذبتم ، ليس الأمر كما تزعمون ، بل سولت لكم أنفسكم أمرا.

ومن إيثار صيغة الفعل من مادة التسويل خاصة، وهو التزيين والتسهيل، وتقدير الشيء في النفس مع الطمع في إتمامه، ولا يكون –في الغالب – إلا في الزور والباطل؛ بقرينة إسناده في الجملة إلىٰ النفس خاصة ، وهي أمارة بالسوء؛ بحكم الجبلة التي فطرها الله عليها ، قال الأزهري : كأن التسويل تفعيل من سؤال الإنسان، وهو أمنيته التي يطلبها ، فتزين لطالبها الباطل وغيره، وأصله مهموز، وقيل :هو من السول، وهو الاسترخاء، كأنه لا يكون إلا في الزور والباطل"[1] وهذا تأكيد أيما تأكيد علي كذبهم، وتقرير أيما تقرير لبطلان زعمهم.

وقد تعانق مع دلالة الصيغة علىٰ تمكين هذا المعنىٰ وتثبيته إيثار صيغة الزمان الماضي –من وجه–؛لدلالتها علىٰ حصول التسويل وتحقق وقوعه.

وتضعيف عين الفعل–من وجه آخر–وما وراء دلالته علي الكثرة من إيحاء بأن التزيين كان بشدة، وأن الإغراء كان بقوة، وأن غلبة الهوىٰ، وتغرير الشيطان بهم كان معميا.

ومن تنكير المفعول "أمرا"؛ لتفخيمه وتهويله، وتشنيعه وتفظيعه، حتىٰ تذهب النفس في تصوره كل مذهب ممكن، كأنه منكر من الأمور لا يوصف، ولا يعرف؛ لفرط شدته، ونهاية هوله، وتأكيد هذا من تحسس حال يعقوب–عليه السلام–

(١) تهذيب اللغة للأزهري، ١٣ / ٤٧، باب السين واللام ـــ تحقيق: محمد عوض مرعب، الطبعة الأولي ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وتأملها؛ إذ لم يكن علي علم أو دراية بحقيقة ما فعله أولاده بيوسف-عليه السلام[1].

والجملة مفعمة بمشاعر الحزن والأسىٰ ، مترعة بالانفعال والغضب الموار الذي يغلي منه صدر يعقوب – عليه السلام – ودماغه ، وقرينة هذا من إخراج الكلام مخرج الإيجاز بحذف مقول القول ؛ لضيق المقام عن الإطالة ؛ إذ تقدير الكلام : قال كذبتم ، ليس الأمر كما تزعمون، ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمرا﴾[2]، ومقامات الضيق بسبب الحزن والأسىٰ ، والانفعال والغضب من المقامات التي تجنح فيها النفس إلىٰ الإيجاز واقتضاب العبارة ؛ انكفاء علىٰ ذاتها، وانشغالا بهمها وحزنها، واحتراقا وتلظيا بغضبها.

ومن تنزلها منزلة الجواب علىٰ سؤال أثارته جملة: ﴿وجاءوا علىٰ قميصه بدم كذب﴾كأنه قيل: فماذا قال يعقوب بعدما سمع مقالتهم ؟ ورأىٰ الدم علىٰ قميص يوسف ؟ فجاء قوله : ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا﴾ مفصولا غير معطوف؛ ليجيب عن هذا الذي قدر وقوعه في أنفس المستمعين.

ولا شك في أن إخراج الجملة مخرج الجواب عن سؤال مقدر مما تقتضيه طبيعة الحال؛ لأن فيه مبادرة إلىٰ رد زعمهم ، وتعجيلا بإلصاق التهمة بهم، وسرعة نفيها عن الذئب ، ولو ذكر السؤال علىٰ وجه التصريح لانتفت هذه

---

(١) ينظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣/ ١٥٨، الطبعة الأولي١٩٩٨م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، وتفسير أبي السعود٤/ ٢٦٠، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور١٢/ ٣٧، الطبعة الأولي٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ، بيروت .

(٢) ينظر التفسير الكبير للرازي ٩/ ٧.

الدلالات، وأدىٰ ذكره إلىٰ تباطؤ وقع الأسلوب وحركته ، وثقل وثوبه إلىٰ القلب، وهذا ما ينأىٰ عنه المقام ، ولا يتطابق مع مقتضىٰ الحال.

وكذا في تكذيبه إياهم صريحا في قوله – ثانيا: - ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ ، والذي أخرج – من وجه – مخرج الاسمية المنبئة عن الثبوت والدوام.

وأخرج – من وجه آخر – في صورة القصر بتعريف الطرفين ؛ حيث قصر يعقوب – عليه السلام – صفة الاستعانة علىٰ ما يصفون علىٰ الله وحده ، قصر صفة علىٰ موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وذلك كله للتأكيد علىٰ عظم الأمر، وهول الخطب، وشدة الفجيعة.

والجملة الكريمة معطوفة علىٰ قوله :- ﴿فصبر جميل﴾ الذي وقع مكتنفا بين التكذيبين، وهي إما خبر في معنىٰ الإنشاء؛ علىٰ أن المقصود هو إنشاء الاستعانة المستمرة ، أي: المطلوب منه – سبحانه – هو العون(١).

وإنما وضع الخبر في موضع الإنشاء ؛ إظهارا لشدة الحرص علي وقوع المطلوب وتحققه، حتىٰ كأنه واقع ، واحترازا عن صورة الطلب ؛ تأدبا.

وإما أن تكون علىٰ أصلها من الخبرية ؛علىٰ أن المراد :هو الإخبار بحصول استعانته بالله –تعالي –علىٰ تحمل الصبر علىٰ ذلك ،أو تصوير حال ما يصفون، وبيان كونه زورا وكذبا، وإظهار سلامته –عليه السلام– فإن هذه الجملة علم في الكذب ، ووصف الشيء بما ليس فيه؛ بقرينة قوله –سبحانه –في سياق آخر: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾، وهذه الدلالة الأخيرة هي الأوفق بما

(١) ينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٠

سيجيء بعد في نسق السورة من قوله – سبحانه : ﴿فصبر جميل عسي الله أن يأتيني بهم جميعا﴾[1].

وأما تفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف ، والصبر علي الرزء فيه فمما يأباه مقام دلالة القميص علىٰ كذبهم في دعوىٰ أن الذئب قد أكل يوسف ، كما يأباه مقام تكذيب يعقوب إياهم في ذلك ، ولا تعين عليه دلالة الصيغة؛ فإنها –كما سبق –قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه[2]،والله أعلم.

وبين هذا وذاك نجد يعقوب –عليه السلام –يستحث نفسه علىٰ الصبر، ويزعها علىٰ الثبات والجلد في هذا الموقف المكروب، وذلك في قوله – سبحانه:- ﴿فصبر جميل﴾،حتىٰ لا تستولي عليه – كما بدا واضحا من قوله :: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ﴾[سورة يوسف:٨٣]."- ثورة الغضب ، وفورة الانفعال .

وقد خرجت هذه الجملة – من وجه –في معرض الإنشاء وصورته ، وقرينة هذا من قراءة أبي "**فصبرا جميلا** "، ويكون –عليه السلام –كالآمر نفسه بالصبر[3].

وإنما عدل النظم الكريم عن :"اصبر صبرا جميلا "إلي ما جاء عليه؛ لأنه الأقوىٰ تثبيتا للنفس ، وشدا علىٰ القلب في هذا الموقف المحزون ؛ لدلالة الرفع علىٰ الثبوت والدوام "[4]، كأن المقصود نوع خاص من الصبر، يكافئ عظم

---

(١) ينظر المرجع نفسه ٤/ ٢٦٠ ، والتحرير والتنوير ١٢/ ٣٧.

(٢) ينظر البيضاوي ٣/ ١٥٨، وأبو السعود ٤/ ٢٦٠ .

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩ ، والكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥١ .

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/ ٣٧ .

المصاب، ويرجح ثقل الأمر ، ويسع شدة الكرب، فالمطلوب صبر دائم لا يخور، وعزم صلب لا يفل ولا يهن .

وخرجت من- وجه آخر – مخرج الإيجاز؛ إما بحذف المسند إليه، والمذكور خبر؛ علىٰ أن تقدير الكلام :" فأمري صبر جميل ، أو فصبري صبر جميل " ، وإما بحذف المسند، والمذكور مبتدأ ، وتقدير الكلام : فصبر جميل أجمل، أو أمثل[1] .

وقد ذكر العلماء[2] أن الغرض من هذا الحذف هو تكثير الفائدة من الكلام؛ بحمله علىٰ وجوه شتىٰ ، والمقام يقتضي هذا الحذف ؛ لأنه مقام ضيق؛ بسبب الحزن الشديد علىٰ ضياع يوسف – عليه السلام – وفقده ، وما أكثر ما تجنح النفس في هذه المقامات إلىٰ الإيجاز ؛ لغلبة الإعياء والجهد عليها ، وفرط ضجرها بالحديث ، وشدة تبرمها منه .

وتقييد الصبر منكرا بالنعت " جميل " فيه نوع امتداح له ، وثناء عليه ، ودلالة علىٰ وجوب خلوصه من كافة الشوائب التي تعترضه وتفسده؛ ولذلك قالوا في تفسيره : هو الذي لا يخالطه جزع ، أو هو الذي لا شكوىٰ فيه إلىٰ المخلوق، كالذي في قوله – سبحانه – في نسق السورة بعد ذلك : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي

(١) ينظر معاني القرآن إعرابه للزجاج ٣/ ٩٦ ، والكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥١ .

(٢) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني ٥٠ ، دار الجبل ، بيروت ، بدون تاريخ ، وشروح التلخيص ٢/ ١٢ دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

﴿وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة يوسف:٨٦]، وقيل معناه : لا أعايشكم علىٰ كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت(١).

وقد روي أن حاجبي يعقوب – عليه السلام – سقطا علىٰ عينيه ، فكان يرفعهما بعصابة ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال: طول الزمان ، وكثرة الأحزان ، فأوحىٰ الله إليه : يا يعقوب! أتشكوني؟ قال : يا رب ! خطيئة فاغفرها لي(٢).

إن المتأمل في سياق الشاهد الكريم يجد أن كثيرا من القرائن السياقية قد تضافر – إلىٰ جوار ما سبق – وتعانق علىٰ تصوير دلالات القميص ، حتىٰ كانت كل همسة تهمهم بها شفاه إخوة يوسف ، وحتىٰ كان كل فعل أو حركة تصدر عنهم تنطق بأنهم قد أبرموا أمرا ، ودبروا كيدا ، وقصدوا بالأقوال والأفعال إلىٰ تضليل أبيهم يعقوب – عليه السلام – .

أما التضليل بالقول فيتجلىٰ – من جانب – في قول الله – سبحانه – حكاية عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾.

وقد ساقوا كلامهم مساق التقرير والتوكيد ، والتحقيق والتشديد ؛ بإخراجه – أولا – مخرج التعليل الذي قدمت فيه العلة علىٰ معلولها: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ ؛ ذلك أن علة الحكم هي

(١) ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٩٦ ، والكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥١ .

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٤٥٢.

دليله المصحح ، وهي برهانه المقتضىٰ له في منطقة المستقيم ، وهذا من شأنه أن يدفع عن الحكم كل شبهة ، ويدرأ عنه كل شك أو ريبة[1].

وإنما قدمت العلة علىٰ المعلول في هذا المقام ؛ تعجيلا بالاعتذار بين يدي هذا الأمر الجلل، وإسراعا إلىٰ تبرئة ساحتهم من تهمة التقصير، ونفيا لأدنىٰ شائبة من شك أو ريبة يمكن أن تحوم في نفس يعقوب – عليه السلام – حولهم ، وذلك لما علم قبل من حالهم في حسد يوسف – عليه السلام – والغيرة منه .

وبافتتاحه –ثانيا – بالنداء الموقظ "يا أبانا "وبحرف التأكيد "إنا "الداخل علىٰ ضمير جماعتهم ، وباسمية الجملة ، وإيثار الجملة الفعلية ذات الفعل الماضي في خبر الحرف الناسخ "ذهبنا نستبق " .

ويتجلىٰ – من جانب آخر – في قوله – سبحانه :-"وما أنت بمؤمن لنا"، الذي أخرج هو الآخر مخرج التأكيد من طريق القصر؛ لتقدم المسند إليه علىٰ المسند ، ووقوعه بعد النفي ، ودخول الباء في الخبر المنفي.

كما يظهر – من جانب ثالث – في قوله – تعالىٰ : ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾الذي جاء في موقعه تذييلا مقررا ومؤكدا لمضمون ما قبله من قوله :"وما أنت بمؤمن لنا"؛ فإن "لو" في صدره لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم المثبت أو المنفي علىٰ كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له علىٰ الإجمال ؛ بإدخالها علىٰ أبعدها منه وأشدها منافاة له؛ ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق الأولوية ؛ إذ من المقرر أن الشيء

(١) ينظر التعليل في القرآن الكريم . دراسة وتفسيرا د/ محمد سالم ص٣٧٩ ، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٥م مطبوعات أولاد عثمان .

متىٰ تحقق مع المنافي القوىٰ كان تحققه مع غيره مما هو دونه أولىٰ ، ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ، ويكتفي عنه بذكر الواو العاطفة للجملة علىٰ نظيرتها المقابلة لها، الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها[1] .

وهذه الخواص التركيبية التي تقدمت ، وما يتوارىٰ خلفها من أبعاد دلالية لها أثر كبير في هذا المقام ؛ إذ تتعانق علىٰ تصوير غاية فقدانهم الثقة بأنفسهم ، وتنطق بشدة اهتزاز موقفهم؛ فإن الواثق من دليله ، المدل بقوة موقفه لا يأبه لمواقف الآخرين ، ولا يقيم لرؤيتهم وزنا .

وأما التضليل بالفعل فيظهر أول ما يظهر من مجيئهم وقت العشاء خاصة يبكون ، وذلك علىٰ الوجه الذي أوغل في تصويره قوله – سبحانه – : ﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون﴾ وإنما آثروا الرواح علىٰ أبيهم في هذا الوقت المتأخر دون غيره؛ إمعانا منهم – من جانب – في التمويه والتضليل ، ومبالغة في إخفاء الأمر، وطمس معالم الكيد .

وليكون أعون لهم – من جانب آخر – علىٰ إظهار شدة الأسف ، ونهاية الاعتذار؛ وذلك كله لعدم وضوح الرؤية وجلائها في هذا الوقت ؛ ولذلك قيل: " لا تطلب الحاجة بالليل ؛ فإن الحياء في العينين ، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار"[2] ، وهذا من قرائن كذبهم ، علىٰ خلاف مقصودهم ؛ وأمارات فساد زعمهم ؛ إذ لو كانوا صادقين لبادروا في إخبار أبيهم فور وقوعه، فإن هذا الأمر الجلل لا يحتمل التراخي ، ولا يقبل التساهل فيه إلىٰ هذا الحد.

---

(١) ينظر أبو السعود ٤/ ٢٥٩.

(٢) ينظر البحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٢٨٨ .

وإيثار صيغة المضارع ﴿يبكون﴾ في تصوير الهيئة التي جاءوا عليها ، وما يتوارىٰ خلفها من دلالة التجدد والحدوث فيه إيذان بأن أنفسهم لا تطوعهم علىٰ البكاء دوما، فكأنهم كانوا يتكلفونه مرة بعد مرة ، وحينا بعد حين .

أما صيغة الماضي من المجيء في صدر الجملة ﴿وَجَآءُو﴾ فتكاد تشي هي الأخرىٰ بهم ، وتفضح سافر كذبهم ؛ فإن ما يكمن فيها من إيحاء بثقل المجيء وصعوبته لمما يدل علىٰ شدة ترددهم ، وينطق بقوة تملك أسباب الشك والريبة منهم ، كأنهم يقدمون رجلا ، ويؤخرون أخرىٰ، ويلتفتون يمنة ويسرة ، وقداما وخلفا ، هل يفطن أحد إلىٰ أمرهم ؟ وهل يبصر مبصر أمارات الشك والريبة، والخوف بادية علىٰ ملامح وجوههم ؟

كما يظهر التضليل بالفعل – انتهاء – من دلالة القميص، في قوله: ﴿وجاءوا علىٰ قميصه بدم كذب﴾ وهو أظهرها قرينة علىٰ كذبهم ، وأقواها برهانا علىٰ تدليسهم ، وتأكيد هذا – أولا – من إجماع العلماء أن يعقوب– عليه السلام – استدل علىٰ كذبهم بصحة القميص(١).

وتأكيده – ثانيا – من تعانق القرائن الحالية والسياقية علىٰ تصويره وتشخيصه، وذلك علىٰ النحو الذي سبق تفصيله وتحليله في الصفحات السابقة .

وأخيرا: فقد ساق إخوة يوسف قرائن كذبهم ، ودلائل زيف زعمهم – قولية كانت أم فعلية – مساق الترقي من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ فالأعلىٰ ، أو من الأقل ظهورا إلىٰ الأظهر فالأظهر، فبدأوا بأخفاها وأضعفها في باب القرائن ، وهو دلالة الهيئة، تلك التي صورها قوله – سبحانه – : ﴿**وجاءوا أباهم عشاء**

(١) ينظر تفسير القرطبي ٩/ ١٥٠ .

يبكون﴾وبرهان هذا أن يعقوب – عليه السلام – لما رأىٰ أولاده علىٰ تلك الحال فزع ، وقال: هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فما فعل يوسف ؟ ... إلىٰ آخر ما سبق تحرير القول فيه .

وختموا بأقواها وأظهرها في باب الأدلة والقرائن ، وهو الدليل المادي المحسوس من قميصه ، في قوله : ﴿**وجاءوا علىٰ قميصه بدم كذب**﴾؛ ولذلك جاء رد يعقوب عليهم بعده حاسما ، وتكذيبه إياهم في إثره قاطعا : ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا﴾، وذلك علىٰ النحو الذي استوفته الدراسة في هذا المحور قدر الطاقة تفصيلا وتحليلا .

وبين هذا وذاك يجيء الدليل القولي في مرتبة وسط ، وفي منزلة فوق الأول، ودون الأخير في القوة والوضوح ، وذلك في قوله – سبحانه – : ﴿**قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾**﴾ وتأكيد هذا مما سبق في قرينة الحال من أن يعقوب – عليه السلام – لم يقنع به ، ولم يركن إليه ، ولم يثق فيه ، فسألهم دليلا ماديا محسوما عليه: ألم يترك الذئب له عضوا فتأتوني به؛ أستأنس به ؟ ألم يترك له ثوبا أشم فيه رائحته ؟

ولا شك في أن سوق الكلام علىٰ مدرجة الترقي علىٰ هذا النحو السابق أبلغ في تقريره ، وأدخل في تحقيق معناه ؛ لأن فيه زيادة في تعضيد حجتهم، ودعم موقفهم، وقوة في إقناع يعقوب – عليه السلام – به؛ لجريانه علىٰ السنن المعهود من أمر الفطرة، وطبيعة الجبلة التي خلق الله الناس عليها، والله أعلم.

*** *** ***

المحور الثاني : أثر القرائن في تصوير دلالة القميص على براءة يوسف - عليه السلام -وكذب امرأة العزيز

كان لقميص يوسف – عليه السلام – دور بارز ، ومشاركة فعالة ، وحضور قوي في إظهار براءته – عليه السلام – و إنجائه من المحنة الثانية التي ألمت به في طور شبابه وفتوته، وهي فتنة امرأة العزيز التي راودته عن نفسه، وأرادته علىٰ خيانة سيده .

والظاهر للرأي أن هذه المحنة كانت أشد و أعمق من المحنة الأولىٰ؛ لأنها جاءت يوسف وقد أوتي صحة الحكم ، وحلت بداره وقد ألهم العلم رحمة من الله؛ ليواجهها وينجو منها؛ جزاء إحسانه الذي سجله الله – تعالىٰ – له في قرآنه(١).

وقد دار القميص حول هذا المعنىٰ ، وتمحور حول تلك الدلالة في سبعة مواضع ، جاءت متتابعة في النظم الكريم بعضها في إثر بعض ، وعلىٰ نحو لافت، يثير التنبه ، ويدعوا إلىٰ التأمل في مرامي الكلام ومقاصده .

ولعل من المناسب أن نورد المشهد القرآني الذي قص هذه المحنة التي نزلت بيوسف – عليه السلام – من أوله؛ حتىٰ يكون المقصود واضحا، والغرض شاخصا، والصورة مكتملة؛ إذ لا يمكن التعرف علىٰ هذه المقاصد، ولا الوقوف علىٰ تلك الدلالات بعيدا عن السياق الذي جاء فيه القميص، وذلك قوله – سبحانه –: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ

(١) ينظر في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤/ ١٩٧٩ ، الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٦م ، دار الشروق ، القاهرة.

ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (يوسف: ٢٢ إلىٰ ٢٩).

فحين نقف أمام هذا المشهد الذي ساقه القرآن لتصوير تلك المحنة نرىٰ صدقا وكذبا، وخيانة وأمانة ، ونبصر بأعيننا مراودة حقيقية كان القميص وحده هو الحكم فيها ، والقاضي بها لطرف دون طرف آخر[1] .

والذي يتأمل القميص الذي تكرر لفظه صراحة بالاسم الظاهر في أربعة مواضع من هذا المشهد ، وذكر في ثلاثة أخرىٰ منه بالضمير المستتر الراجع إلىٰ هذا الظاهر، علىٰ هذا النحو: ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ﴾﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾يجد أنه كان – من وجه – دليل صدق ، وبرهان حق علىٰ صدق يوسف – عليه السلام – وتأكد براءته من تهمة المراودة التي سعت

(١) يراجع مقال : نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – لمحمد المرواني ص ٢ .

امرأة العزيز في إلصاقها به ، واستفرغت وسعها في تلويث سمعته ، وتدنيس عفته بنسبتها إليه .

وهو – من وجه آخر – ذو دلالة صريحة علىٰ كذب امرأة العزيز وخيانتها ، وتحقق افترائها ، وظهور زيف زعمها أن يوسف – عليه السلام – قد راودها عن نفسها ، وأراد النيل منها ومن شرفها .

وهنا تتبدىٰ للمتأمل – في وضوح – أن ازدواجية الدلالة وتقابلها هي سمت القميص في هذه المواضع المذكورة وخصيصته ، كما كان الشأن في القميص الأول؛ فقد دل القميص – من وجه – هناك علىٰ كذب إخوة يوسف ، ودل – من وجه آخر – علىٰ براءة الذئب من دمه ، وذلك علىٰ نحو فريد يشبه طريقة العكس البلاغي الذي عده عبد القاهر من النظم الذي يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع ، والذي لا ترىٰ سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه[1] ، لكنه – هنا – عكس معان ودلالات – إن صح هذا الإطلاق – وليس عكس ألفاظ وتراكيب .

ومن بين هذين الغرضين المتقابلين يتجلىٰ من وراء القميص علىٰ مدرجة اللزوم ، وبطريق الرمز الكنائي خاصة معنىٰ ثالث هو الغرض الأسمىٰ ، والمقصود الأعلىٰ من قص هذه المحنة التي حلت بيوسف – عليه السلام – في قصر العزيز، وألمت به هناك ، وهو المبالغة في الدلالة علىٰ شدة عفة يوسف – عليه السلام – وتقرير نزاهته ، وتصوير طهارته ونقاء عرضه من كل ما نسل إليه، وكادته به امرأة العزيز ، وحاولت هي والنسوة رجمه به.

(١) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص ٩٣-٩٤ .

وتقرير هذا المعنىٰ وتأكيده علىٰ النحو السابق يحمل في تلافيفه ردا قويا علىٰ اليهود مقرونا بدليله ، مشفوعا ببرهانه ، وتسجيلا عليهم بالكذب والبهتان؛ حيث نسجوا الأساطير علىٰ عادتهم حول هذا الحدث ، ولفقوا الزور علىٰ نحو وضيع يتنزه عن مثله أصحاب المروءات من الناس ، فضلا عن الأفاضل من أولي العصمة وأرباب الطهر والعفاف من الأنبياء والمرسلين.

علىٰ أن ثمت دلالة رابعة ينادي عليها القميص في هذا الموقف بقوة ؛ إذ يؤشر إلىٰ الشهوة الجنسية، ويصور فرط جموحها ، وشدة عنفوانها ، إذا لم تحط بسياج متين من الدين والأخلاق، ولم تعقل برباط غليظ من العقل والحكمة؛ فها هي امرأة العزيز التي تتربع علىٰ أعلىٰ قمة في المجتمع المصري في هذا الزمان تندفع وراء جموح شهوتها ، وتنساق خلف محاولة إشباع رغباتها ونزواتها، وتخلع عن نفسها ثوب الحياء والعفة ؛ لتراود في تبجح ظاهر، وعلىٰ نحو فاضح مكشوف – فتاها يوسف عن نفسه ، وتساومه علىٰ عفته وطهارته(١).

ومنشأ دلالة القميص علىٰ تلك المعاني السابقة، ومبتداها من قد امرأة العزيز إياه من دبر خاصة؛ لنداء القد من هذه الجهة ودلالته علىٰ أن يوسف – عليه السلام – لم يكن مقبلا عليها ، وإنما كان في غاية الإدبار عنها ، والجد في الهرب منها ، وأنها – في المقابل – كانت حثيثة في طلبه ، حريصة علىٰ دركه والنيل منه، حتىٰ لحقت به ، واجتذبت ثوبه من خلف إليها ، فقدت قميصه من دبر، وذلك

(١) ينظر قرآنيات القمصان الثلاثة ، أحمد إسماعيل ، مجلة بقية الله ، العدد ٢٠١ ، أبريل ٢٠٢٠م.

حسبما صوره النظم الكريم في قوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ وحققه في مواضع أخرىٰ من القصة الكريمة(١).

وبرهان هذا التحليل الذي نحا إليه البحث ، وتأكيد فاعلية القميص، وتصوير ما له من دور بارز ومؤثر في استكناه هذه الدلالات واستنباطها ، وفي مضي خطا الأحداث قدما نحو غاياتها وأهدافها هو من تعانق القرائن الحالية والسياقية وتفاعلهما في حركية مستمرة ، وعلىٰ نحو كاشف ومصور، لا يترك مظنة لشبهة، ولا يدع مجالا لأدنىٰ شائبة من شك أو تردد .

أما القرائن الحالية فتشخص – أولا – في تلك الملابسات التي صاحبت الحدث نفسه، واقترنت بوقوعه، واكتنفت الموقف من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ويمثل هذا بجلاء فيما أورده الطبري من أن يوسف – عليه السلام – وامرأة العزيز لما ألفيا سيدها لدىٰ الباب ، ووجدها العزيز علىٰ تلك الهيئة المريبة ابتدرته قائلة : "﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءا﴾ إنه راودني عن نفسي ، فدفعته عنها ، فشققت قميصه ، وقال يوسف: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ ففررت منها فأدركتني ، فشقت قميصي ، فعندئذ قال الشاهد : تبيان هذا في القميص : ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾(٢) الآيات ، فهذه الرواية ظاهرة الدلالة، قوية الإيحاء في تأكيد فاعلية القميص ومحورية دوره في حسم مادة النزاع في هذه القضية محل الخلاف.

---

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٦٠ ، وروح المعاني للألوسي ٦/ ٤١٢ .

(٢) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري ١٦/ ٥١ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

وتتجلىٰ هذه القرائن – ثانيا – في مقتضيات الأحوال علىٰ تنوعها واختلافها؛ حال يوسف – أولا – والتي تتبدىٰ – من وجه – في استباقه إياها للهرب منها، وشدة عدوه إلىٰ الباب قبلها ، وذلك حسبما صوره قوله – سبحانه -: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ ، وجسدته رواية الطبري السابقة ؛ فإن الرجل الطالب للمرأة ، المتعرض للنيل منها لا يخرج علىٰ هذه الحال ، ولا يعدوا بتلك الكيفية(١).

وقرينة هذا من إيثار الفعل الماضي من الاستباق في قوله : " واستبقا الباب" وكونه علىٰ زنة الافتعال خاصة ، وما وراء ذلك من إيحاء قوي بحرص كل من يوسف – عليه السلام – وامرأة العزيز علىٰ استباق صاحبه ، وجد كل منهما وتعمله في طلب الوصول إلىٰ الباب قبل الآخر ؛ يوسف – عليه السلام – لفوتها والهرب منها ، وهي لدركه ومنعه من الخروج ؛ وتأكيد هذا فيما ذكره المفسرون من تضمين الاستباق معنىٰ الابتدار في الجملة الكريمة(٢).

ومن حذف حرف الجر، وتعدية الفعل إلىٰ ﴿الباب﴾ بنفسه ، دون الحرف الدال علىٰ الانتهاء ، وهذا يجري علىٰ الوجه الذي سبق من تضمين الاستباق معنىٰ الابتدار؛ للمبالغة في الدلالة علىٰ فرط السرعة ، وشدة العدو ، حتىٰ بذل كل واحد منهما غايته في السبق ، حتىٰ كأن الباب نفسه قد صار ميدانا للتنافس، وحلبة للتسابق، وهدفًا للسباق كله؛ لأنه بتجاوز الباب يتغير المكان، ويتغير معه

(١) ينظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٩/ ٣٥ .

(٢) ينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥٨ .

الموقف كله، كما يشير حذف حرف الجر ــ أيضًا ــ إلىٰ سرعة الوصول إلىٰ الباب، حتىٰ كأنهما في لحظة قد وصلا إلىٰ الباب[1].

ومن إفراد الباب ، مع كثرة الأبواب وتعددها؛ حسبما ينبئ عنه قوله – سبحانه-: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [سورة يوسف:٢٣]."؛ وذلك للدلالة علىٰ توحد القصد، ووضوح الغاية والهدف لدىٰ كل منهما، وتأكيد هذا من إسناد السبق في ضمن الاستباق إليها ، مع أن مرادها مجرد منع يوسف – عليه السلام – ؛ مبالغة في تصوير إسراعها في أثره ؛ لمنعه من الخروج[2].

وتتبدىٰ – من وجه آخر – من حاله في الرق ، والمدلول عليها من قوله – سبحانه -: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾(يوسف: ٢١)؛ فقد كان يوسف – عليه السلام – مملوكا لهم في الظاهر ، ومن المعلوم بداهة أن المملوك لا يتسلط علىٰ مولاه إلىٰ هذا الحد الذي صورته المرأة ، وبالغت فيه، لاسيما إذا كان في بيتها ، وتحت تصرفها ، وكان عندها من الخدم والحرس ما يحول بينه وبين ذلك[3].

ومن حاله في كمال الأدب ، وتمام العصمة المدلول عليها – من وجه – من طول المدة ، وكثرة المخالطة ؛ فقد خبروا أمره ، وعاينوا من أحواله في هذه المدة الطويلة التي عاشها بينهم ، فما رأوا عليه حالة ، ولا وقفوا منه علىٰ ريبة تناسب

---

(١) ينظر جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف. د/ عويض بن حمود العطوي، ص٤١ ، المملكة العربية السعودية ٢٠١٠م.

(٢) ينظر أبو السعود ٤/ ٢٦٧ .

(٣) ينظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٩/ ٣٥

إقدامه علىٰ هذا الفعل المنكر الشنيع ؛ بقرينة قوله – تعالىٰ – علىٰ لسان المرأة نفسها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، وبقرينة مخاطبة العزيز إياه بلطف ولين بعد شهادة الشاهد في قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾.

والمدلول عليها – من وجه آخر – من ثقته عليه السلام – بنفسه ، ومن إدلائه بقوة حجته ، وصلابة موقفه ؛ بقرينة قوله – سبحانه – حكاية عنه في رد دعوىٰ المرأة واتهامها: ﴿هِيَ رَٰوَدتْنِي عَن نَّفْسِي﴾الذي يتفجر أدبا ونبلا ، ويفيض ثقة ويقينا ؛ فقد أرسل عبارته خالية من جميع المؤكدات ، وعلىٰ نحو مقتضب، مع أن الأمر جد خطير، وكنىٰ عنها بضمير الغيبة " هي " ولم يذكرها باسمها الصريح، أو باسم الإشارة ولم يواجهها بالخطاب المباشر ، وذلك كله مراعاة لحسن الأدب، وكمال اللياقة ، مع الإيماء إلىٰ متاركتها والإعراض عنها ، وهكذا شأن أهل الحق والصدق ؛ يجدون في الكلمة المرسلة علىٰ طبيعتها ما يغني عن كل قول، ويستعلىٰ علىٰ كل حجة وبرهان[1] ، ومن ثم كان امتداح الله إياه أولا ، وثناؤه عليه بالعصمة في أول قص المحنة وفي أثنائه مقدما ، كالذي تجده في قوله في مطلع الحدث : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف : ٢٢) وقوله في أثنائه:﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

(١) ينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٨ ، وروح المعاني للألوسي ٦/ ٤١٠ ، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ٢٦٠ ، دار الفكر العربي – القاهرة ، بدون تاريخ .

ومن حال المرأة نفسها – ثانيا –؛ إما في شدة العهر والتبجح ، ونهاية التفحش ، وذهاب الحياء والحشمة بالكلية ؛ باعترافها علىٰ الملإ صراحة بمراودتها إياه عن نفسه ، وعلىٰ وجه الجزم والتحقيق ؛ بإخراج كلامها مخرج القسم الموطأ له باللام ، ودخول حرف التحقيق " قد " علىٰ الفعل الماضي من المراودة ، مع تعيين جهتها في قوله : ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

وبتهديدها إياه إعلانا علىٰ مسامع النسوة بالسجن والصغار إن لم ينزل علىٰ مرادها، ويحقق لها رغباتها ؛ بإلباس عبارتها ثوب الشرطية والقسم الموطأ له باللام الداخلة علىٰ أداة الشرط ، واقتران الجواب باللام – أيضا – واتصال النون المؤكدة في فعلي الجواب المضارعين المتعاطفين في قوله : ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (يوسف : ٣٢) ، وإنما أوثرت " إن " في ربط الشرط والجزاء للدلالة علىٰ أن المرأة غير جازمة بعدم تلبيته – عليه السلام – رغبتها، وانصياعه لأمرها ، وهذا من ثقتها بنفسها ، وارتكانها إلىٰ جاهها وسلطانها؛ ولذلك جاء الجواب مؤكدا ، وتهديدها إياها مغلظا ومشددا .

وإما في شدة الحب ونهاية العشق ؛ بقرينة قول المرأة لسيدها لما ألفياه لدىٰ الباب: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوآ إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ فقد تركت أمر الذنب مبهما ؛ بدلالة أنها آثرت فيه لفظة تتسم بعموم الدلالة وشمولها ، وهي كلمة " سوءا " التي أضاف التنكير إلىٰ إبهامها إبهاما آخر ، مع عدم تصريحها باسمه عليه السلام .

وعينت نوع العقوبة : ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ وذلك علىٰ خلاف مقتضىٰ الجبلة في أمثال هذه المواقف التي يصعب فيها ضبط المشاعر

وتقييد الانفعالات؛ حتىٰ لا يفرط غضب العزيز عليه ، أو تفور في قلبه الحمية فيعاقبه بغير ما تريد ، فاستطاعت المرأة أن تجمع في الحالة التي يدهش فيها اللوذعي الفطن ؛- حيث شاهدها زوجها علىٰ تلك الحالة المريبة- بين غرضيها ، وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال ، واستنزال يوسف – عليه السلام – عن رأيه في استعصائه عليها ، وعدم مواتاته إياها علىٰ مرادها ؛ بإلقاء الرعب في قلبه؛ طمعا في مواقعته إياها مكرها عند يأسها عن ذلك مختارا(١).

وبقرينة اطلاع سائر النسوة علىٰ تلك الحال التي كانت عليها في الحب والعشق ، وخوضهن في ذلك ، حسبما صوره قوله – سبحانه – :﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف : ٣٠).

وإما في الزينة والتجمل ، وفرط التهيؤ ، وهذا أظهر من أن يستدل عليه؛ لمكان قوله تعالىٰ في مطلع الأحداث : ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ﴾فكان إلحاق الفتنة بها أولىٰ من يوسف – عليه السلام – (٢).

ومن حال العزيز نفسه – ثالثا – فقد كان – كما قيل – عاجزا عن شهوة النساء ، وقرينة هذا من قلة غيرته ، وانطفاء حميته عندما وجد امرأته علىٰ تلك

(١) ينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٨ ، وروح المعاني للألوسي ٦/ ٤٠٩ .

(٢) ينظر التفسير الكبير للرازي ٩/ ٣٥

الحال المريبة ، وهذا – كما ذكر المفسرون – من لطف الله – تعالىٰ – بنبيه يوسف – عليه السلام –[1].

ولا شك في أن هذه القرائن المقامية كلها قد تعانقت بما يكمن خلفها من معان وإيحاءات علىٰ تقرير طلب الشهوة في حق المرأة ، و تأكيد نفيها عن يوسف – عليه السلام – وتصوير تلك المعاني والدلالات التي سبق تفصيلها وتحليلها، والتي كان قد القميص من دبر هو برهانها الساطع ، وميزابها القاطع ، فأضحىٰ الحق أبلجا ، وأمسىٰ الباطل لجلجا ، والله أعلم .

وأما القرائن السياقية فتتنوع بتنوع المشاهد، وتتعدد بتعدد المواقف والأحداث، حيث يأتي في طليعة هذه القرائن تكرار لفظة القميص في سبعة مواضع بعضها آخذ بعناق بعض: "﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن﴾ –﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾–﴿وإن كان قميصه قد دبر﴾ –﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾" ووراء هذا التكرار علىٰ النحو السابق نداء صارخ علىٰ أن مدار الحكم ومحوره في هذه الدعوىٰ الخطيرة يدور علىٰ حال هذا القميص الذي صار مشعرا بنفسه ، ودالا برسمه علىٰ براءة طرف، واتهام طرف آخر.

وتأكيد هذا من وقوع القميص في موقع العمدة ، والأصل الثابت المعول عليه في خمسة مواضع من هذه السبعة ، حيث جاء ذكره في اثنين منها بالاسم الظاهر " ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ ، وذكر في الثلاثة الأخرىٰ منها بالضمير المستتر العائد إلىٰ الاسم الظاهر: "﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾–﴿قد من دبر﴾–﴿قد من دبر﴾ " ، ومن المعلوم أن ضمير الغيبة المستتر الذي جاء في موقع نائب

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٦١ والتفسير الكبير للرازي ٩/ ٣٥، والبحر المحيط ٥/ ٢٩٨

الفاعل هو عين الاسم الظاهر في المعنىٰ ؛ إذ لو لم يكن للقميص هذا الأثر الفاعل، وتلك المحورية التي يدور عليها الحكم لما كان له أن يقع في هذا الموقع – موقع المسند إليه – أو أن يحضر في الدعوىٰ المثارة من الطرفين كل هذا الحضور.

وأما الموضعان الآخران: "﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن﴾– ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ فهو وإن جاء فيهما في موقع المفعول إلا أن له مقام العمدة ، وحكمه في الدلالة ؛ لأنه في الموضع الأول لتشخيص الواقع وتصويره ، وفي الموضع الثاني لتحقيق الرؤية التي قامت عليها الشهادة وتمكينها.

ومن وجه آخر فإن في تكرار لفظة القميص علىٰ هذا النحو المتتابع الذي جاء عليه النسق الكريم تأكيدا علىٰ عفة يوسف – عليه السلام – ونزاهته ، وتقريرا لنقاء ذيله وطهارته ؛ لإيحائه بقوة، وتنبيهه بلطف علىٰ أن ما كان من المساس الحاصل من امرأة العزيز لم يتجاوز حدود القميص إلىٰ جسده – عليه السلام –، وهذا من دقائق المعاني[1] .

كما أن تكرار القميص وإعادته بالاسم الظاهر خاصة هو الذي يتطابق مع مقتضىٰ حال الشهادة ومقامها المدلول عليه من قوله : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ في الحسم والقطع ، والبت في القضية علىٰ وجه لا خفاء فيه ولا مواربة، وعلىٰ نحو ينفي عن الحكم كل شبهة ، ويدرأ عنه كل نقيصه ؛ لدلالة هذا التكرار علىٰ أن الأمر في غاية الظهور والبيان ، والوضوح والانكشاف ، وهذا من شأنه أن يقطع كل سبيل للطعن علىٰ الحكم ، أو المراوغة في قبوله والإذعان لمقتضاه؛

(١) يراجع مقال : نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – ص٢ / محمد المرواني ٠

لدلالة الأسماء الظاهرة علىٰ تعين مدلولاتها ، وتحديد مسمياتها تحديدا يزيل عنها كل لبس أو عماية ، وهذا ما لا ينهض به الضمير ، ولا يقوم بأدائه وتوفيته[1].

كما يأتي علىٰ رأس هذه القرائن السياقية التي تعانقت علىٰ تصوير دلالة القميص علىٰ المعاني السابقة ، وتأكيد رمزيته ، وأنه كان قطب الرحا فيها: تسمية قول القائل شهادة ، وتعويل الشاهد علىٰ دلالة القميص وحدها دون غيرها من الدلالات في قوله – سبحانه –: ﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبينوإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأىٰ قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾ فجعل الشاهد – كما صور النسق – دلالة القميص هي فصل الخطاب في الحكم لطرف علىٰ طرف آخر .

واختلف في الشاهد من هو ؟ علىٰ عدة أقوال، فقيل: كان ابن عم للمرأة . وقيل: هو الذي كان جالسا مع سيدها لدىٰ الباب . وقيل: كان حكيما يرجع إليه الملك ، ويستشيره في جميع أموره . وقيل: هو بعض أهلها ، كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له ، والقيام بالحق[2]. وقيل: هو مخلوق ليس بإنسي ولا جني[3] . وقيل: هو القميص نفسه[4] وهذان القولان الأخيران يأباهما وصف الشاهد بكونه من أهلها[5].

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ، د/ محمد أبو موسىٰ ص٢٤٨ ، الطبعة الرابعة ١٩٩٦ – مكتبة وهبة – القاهرة.

(٢) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦-٤١٧ ، تحقيق/ محمد علي الصابوني، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٩هـ، جامعة أم القرىٰ، مكة المكرمة، والكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥٩ .

(٣) ينظر تفسير القرطبي ٩/ ١٧٣ .

(٤) ينظر جامع البيان للطبري ١٦/ ٥٩ .

(٥) ينظر المرجع نفسه ١٦ / ٥٩ ، وتفسير القرطبي ٩/ ١٧٣ .

وقيل: الشاهد هو العزيز نفسه؛ نظر إلىٰ يوسف فرأىٰ قميصه ممزقا ، فأدار بينه وبين نفسه حوارا عن هذا القميص لم مزق ؟ ومن مزقه ؟ ولم كان ممزقا من خلف ، لا من أمام ؟ وهل لذلك من دلالة ؟ ثم أسلم نفسه لتفكير عميق، وفي رأسه تدور الأفكار، وتموج الخواطر، ويقلب الأمر علىٰ جميع وجوهه، ويعرضه علىٰ كل احتمالاته ، ثم ينتهي به الرأي إلىٰ تلك الحقيقة التي هي فيصل الأمر، ومقطع الرأي: " إن كان قميصه قد من قبل ..."[1] الآيات.

وهذا القول أبعد من البعد؛ لأن مقتضىٰ الحال ، وطبيعة الموقف، وخصوصية الحدث ، وما تلبس به وقت حصوله من عنصر المفاجأة والمباغتة، حيث وجد الرجل امرأته علىٰ تلك الحال المريبة من غير توقع ، لا يحتمل هذا التفكير العميق ، ولا يساعد علىٰ تقليب الأمر علىٰ جميع وجوهه علىٰ النحو المذكور؛ لأنه يؤدي – حسبما تقتضيه الجبلة – إلىٰ فورة نار الغضب ، وتأجج ثائرة الحمية ، وتفلت زمام العقل ، وغياب سلطان الفكر ، وهذا يحول – حتما – دون هذا الاستغراق والتأمل ، بل ويدفع إلىٰ الطيش والنزق ، والتعامل مع الموقف بانفعال وتوتر، وبغير حكمة ورشد .

وقيل : إن الشاهد كان ابن خال للمرأة ، وكان صبيا رضيعا ، أنطقه الله ببراءة يوسف – عليه السلام –[2] .

وهذا القول هو الذي تميل إليه النفس ، ويسكن له القلب ؛ لتعانق الدلائل والقرائن علىٰ ترجيحه وترشيحه ، ولا التفات لما قيل من أن الشاهد لو كان

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٦/ ٢٦٢

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٦/ ٥١ – ٥٢ ، والكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥٩.

صبيا في المهد لكان مجرد كلامه قبل حلول أوانه، حتىٰ لو قال: صدق يوسف وكذبت لكان برهانا كافيا علىٰ صدقه – عليه السلام – كما كان مجرد إخبار عيسىٰ – عليه السلام – في المهد برهانا علىٰ صدق مريم ، فلا تبقىٰ المناسبة – حينئذ – بين الأمارة المنصوبة وما رتب عليها ؛ لأن العمدة في الدلالة نصبها لا مناسبتها[1]، فإن هذا القول مما تعوزه الدقة ، وتنبوا عنه قرائن السياق والمقام ؛ لورود الخبر الصحيح – أولا – بأن الشاهد كان صبيا رضيعا في المهد ؛ فقد جاء في الحديث أن النبي – صلىٰ الله عليه وسلم – قال : " تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف، وصاحب جريج ، وعيسىٰ بن مريم عليه السلام "[2]، فهذا الأثر قاطع الدلالة في أن شاهد يوسف كان صبيا رضيعا ، ولم يكن حكيما، أو رجلا كبيرا .

ولتنكير الشاهد – ثانيا – في قوله : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ،لتفخيمه، وتعظيم شأنه ، وإكبار أمره ، وهذا لا يتأتىٰ إلا إذا تعلق به من الأحوال والهيئات والكيفيات ما يقتضي ذلك.

ولمقتضىٰ حال العزيز وامرأته في الغنىٰ والثراء ، والعزة والجاه ، والقوة والسلطان –ثالثا –، فإنه ينادي علىٰ ترجيح أن يكون الشاهد صبيا رضيعا، أنطقه

---

(١) ينظر كتاب الانتصاف لابن المنير الإسكندري ٢/ ٤٦٠ ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث ، القاهرة.

(٢) ينظر المستدرك علىٰ الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ) رقم ٣٨٣٥ – تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا– دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الأولىٰ، ١٤١١ هـ– ١٩٩٠ م.

الله في المهد ببراءة يوسف – عليه السلام – ؛ حتىٰ لا يتأتىٰ لهم الالتفات حول شهادته ولا الطعن في حجته ، وحتىٰ لا يتمكنوا من استغوائه وإطماعه، أو تخويفه وترهيبه لو كان رجلا كبيرا ، أو حكيما رزينا ، وتاريخ الإنسانية الطويل يشهد بالتفاف أهل الزيغ والضلال ، وأرباب الكفر والشرك علىٰ حجج أهل الحق الظاهرة، وبراهينهم القاطعة لاسيما معجزات الأنبياء والمرسلين؛ فقد كانوا يسمونها سحرا، أو سكرا ، أو شعرا، أو غير ذلك مما كانوا يشوشون به علىٰ الناس، ويصرفونهم به عن اتباع الحق والرشاد.

وقرينة هذا وتأكيده من نسق القصة وسياق النظم الكريم بعد ذلك في قوله: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ (يوسف : ٣٥)؛ إذ لم يكن بدو الآيات من دلالة القميص علىٰ براءته – عليه السلام – ولا نطق الصبي الرضيع من أجله بشهادته مانعا لهم عن ظلم يوسف ، والزج به في غياهب السجن، والله أعلم .

وأما ما استدلوا به – اعتراضا علىٰ أن الشاهد كان صبيا رضيعا من أهل المرأة – من أن العبرة في الدلالة هي نصب الأمارة لا مناسبتها ، وأن مجرد نطق الصبي قبل أوانه ، حتىٰ لو قال: صدق يوسف وكذبت لكفىٰ برهانا علىٰ صدق ... إلخ . فلا يقوم علىٰ أرض صلبة ، ولا ينهض علىٰ أساس متين؛ لارتباط ردة الفعل – في الغالب – بطبيعة المواقف والأحداث ، وتناسلها من مقتضيات الأحوال، وتأكيد هذا من شهادة الواقع ؛ ففي حديث الثلاثة المتكلمين في المهد: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ، عيسىٰ بن مريم ، وصاحب جريج ،..." وبينا صبي يرضع من أمه ، فمر رجل راكب علىٰ دابة فارهة ، وشارة حسنة ، فقالت : اللهم

اجعل ابني مثل هذا ! فترك الثدي ، وأقبل عليه ، فنظر إليه فقال : اللهم لا تجعلني مثله... ومروا بجارية وهم يضربونها ، ويقولون: زنيت .سرقت . وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل . فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها! فترك الرضاع، فنظر إليها ، فقال: اللهم اجعلني مثلها! فهنالك تراجعا الحديث، فقالت: مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابني مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها... فقلت : اللهم لا تجعل ابني مثلها ! فقلت: اللهم اجعلني مثلها ... "[1] الحديث . فإن الذي لفت انتباه الأم ، وأيقظ اهتمامها، وأثار حفيظتها هو رد رضيعها دعاءها في المرتين عليها ، وليس نطقه علىٰ هذه الحال ، ولا بتلك الكيفية ، بقرينة تنازعهما الحديث، وذلك علىٰ الوجه الذي صوره نسق القصة في قوله – صلىٰ الله عليه وسلم -: " فهنالك تراجعا الحديث...".

وكذلك كان شأن فرعون وملئه من نطق رضيع ماشطة ابنته في المهد؛ لم يحرك فيهم ساكنا ، ولم يستثر في ضمائرهم مشاعر الرحمة والإنسانية تجاه الأم ورضيعها ، وقد سمعوا بآذانهم كلامه ؛ ووعوا نطقه وبيانه ، وكذلك كان ديدن الظالمين والطغاة أصحاب الأخدود ، وكذا المنافقون لائكوا الإفك في شأن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – وقد نزل القرآن صريحا ببراءتها .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب العمل للصلاة ، باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة ، حديث رقم ١٢٠٦ ص ١٦٦، ترتيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨م ، دار ابن حزم ، القاهرة ، ومسلم في كتاب البر الصلة والآداب ، باب تقديم الوالدين علىٰ التطوع بالصلاة وغيرها ، حديث رقم ٢٥٥٠ ، ص٧٣٣، ترتيب وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨م ، دار ابن حزم ، القاهرة .

وأما ما رجحوه من أن الشاهد بعض أهلها؛ كان في الدار فبصربها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله – تعالىٰ – ليوسف بالشهادة له ، وإقامة الحجة معه، ولكنه نصب أمارة علىٰ صدقها، وقدمها في الذكر علىٰ أمارة صدقه: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ الآيات؛ إنصافا لهما جميعا ، ونفيا للتهمة في الشهادة عن نفسه ، ونأيا بشخصه عن أن يكون هو الفاضح لها ، الهاتك لسترها، ووثوقا بأن أمارة صدقه وكذبها هي الواقعة ، فلا يضره تأخيرها ، كما كان الشأن في قصة مؤمن آل فرعون ، في قوله – سبحانه – : ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ، حيث قدم قسم الكذب علىٰ قسم الصدق ؛ إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسىٰ – عليه السلام – ووثوقا بأن القسم الثاني وهو صدقه – عليه السلام – هو الواقع ، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة ، ومن ثم قال : ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل " كل ما يعدكم "؛ تعريضا بأنه معهم عليه ، وأنه حريص علىٰ أن يبخسه حقه(١).

وكذلك الشأن – أيضا – في قصة تأخير يوسف – عليه السلام – كشف وعاء أخيه بعد كشف أوعية إخوته الآخرين؛ لأنه لو بدأ به لفطنوا إلىٰ أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه(٢) ، فهذا كله مما ذكروه واستدلوا به مما يحتاج إلىٰ إعادة نظر، ويتطلب تدقيقا وتفرسا في مناطات القرائن ومقتضياتها؛ فإن المقام في قضية

(١) ينظر كتاب الانتصاف لابن المنير ٢/ ٤٦٠ .

(٢) ينظر المرجع السابق ٢/ ٤٦٠ .

البحث يختلف عن المقام في قصة مؤمن آل فرعون ، وعن المقام في قصة السقاء التي وضعها يوسف في رحل أخيه.

فالمقام في قضية البحث مقام شهادة في قضية ، وبرهان حق في دعوىٰ، ومقامات الشهادة تتطلب الحسم والقطع ، وتقتضي التصريح والكشف ، وترتفع عن معاريض الكلام ؛ حتىٰ يكون المقصود من الشهادة واضحا بينا ، والحجة بها قائمة مقبولة ، وحتىٰ لا يتلبس بها شيء من الشك والريبة ، أو يحوم حولها شبهة أو إنكار .

وأما ما ذكر من أن الشاهد إنما بدأ شهادته بما بدأ به من تقديم أمارة صدقها علىٰ أمارة صدقه خوفا من أن يكون هو الفاضح لها فهو – إن حقق النظر – طعن في شهادته ، وقدح في حجته .

والمقام في قصة مؤمن آل فرعون مقام دعوة وحجاج ، وهي مقامات تتطلب تلطفا في القول ، ولينا في العبارة ، وبصرا بطبائع المدعوين ، وبصيرة بمواقع الكلام ومآلاته ؛ تحاشيا عما يؤدي إلىٰ نفور المدعو وإعراضه ، وشططه ولججه، وحتىٰ لا يفرط منه تجاه الداعية ما يسوؤه ويؤذيه ، لاسيما إذا كان المدعو علىٰ شاكلة فرعون وجنده في الطغيان والجبروت ، وشدة البطش والتنكيل ، وقد صرح اللعين سلفا بإرادته قتل موسىٰ – عليه السلام – .

وأما المقام في قصة وضع يوسف السقاية في رحل أخيه فهو مقام حيلة وكيد؛ بقرينة قوله – سبحانه – : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ (يوسف : ٧٦)، وهذا النوع من المقامات يتطلب قدرا زائدا من التمويه والمخادعة ، والتلبيس علىٰ المخاطب ؛ حتىٰ لا يفطن إلىٰ حقيقة الأمر ، لاسيما وأن الظاهر من حال

يوسف – عليه السلام – يقتضي هذه المواربة ، فهو لا يريد أن يكشف لإخوته عن حقيقة نفسه ، لاسيما في هذه المرحلة من مراحل الصراع الكائن بينه وبينهم.

وإنما قدم الشاهد أمارة صدق المرأة في الذكر علىٰ أمارة صدق يوسف – عليه السلام – في قوله : ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ إخراجا للشهادة مخرج الدعوىٰ في الإتقان والإحكام ، والترتيب والإبرام ؛ حيث ابتدرت المرأة دعواها – أولا – بين يدي سيدها لما ألفياه لدىٰ الباب قبل يوسف : ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوآ إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ وجاءت دعوىٰ يوسف ودفعه التهمة عن نفسه في إثرها – ثانيا – علىٰ وجه الانتظام: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾ ،فكان أن جاءت شهادة الشاهد مرتبة في نسق الكلام علىٰ وفق ترتيب الدعويين ، ومساق القضيتين ، وذلك في لباس يشبه لباس اللف والنشر المرتب ؛ فقول الشاهد – أولا: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ "يرجع إلىٰ قول المرأة : " ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوآ﴾ويعضده ، وقول الشاهد – ثانيا –: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ يرجع إلىٰ قول يوسف – عليه السلام –: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾ ويؤازره ، وتلك طريقة في بني الكلام وتأليفه عجيبة، وهي في مقام الشهادة ضربة لازم ؛ لأن الشاهد لبىٰ بها حاجة الخصمين ، ونزل علىٰ مقتضىٰ الدعويين ، وهذا غاية الإنصاف ، ونهاية الإتحاف ، ومن فرط التحري ودقة النظر، وهذا يقتضي – علىٰ وجه الجزم والتحقيق – أن يكون الشاهد صبيا رضيعا من أهلها ، أنطقه الله بالحق الصادح، والعدل الواضح الذي لا يترك مجالا لشبهة ، ولا يدع مظنة لريبة؛ ولذلك سماه الله في ختام هذا المشهد آية وعلامة بارزة كأعلام الطريق المنصوبة للهداية، والله أعلم.

وإنما وصف الشاهد بكونه ﴿من أهلها﴾ إما بيانا للواقع؛ زيادة في تأكيد حجية الشهادة وتثبيتها ، إن كان طفلا رضيعا ، وإما لقوته في الدلالة علىٰ نزاهة يوسف – عليه السلام – وأبلغيته في نفي التهمة عنه ، ولزوم الحجة به؛ فإن الأهل يكونون أشد تعصبا لذويهم من غيرهم، وأكثر ميلا إلىٰ جانبهم(١).

والشرطية في الآيتين محكية علىٰ إرادة القول؛ لأن مضمونها هو المشهود به، علىٰ أن التقدير : فشهد ، فقال ، أو قائلا ، وهذا هو مذهب البصريين ، وإما لأن الشهادة لما كانت في معنىٰ القول جاز أن تعمل في الجمل ، كما يعمل القول، وهذا مذهب الكوفيين(٢) .

والنكتة في تسمية قوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ شهادة أنه الأوفق عطاء بمقام دلالة القميص علىٰ براءة يوسف ، وكذب المرأة؛ إما لتأديته مؤداها في الظهور والبيان ، والدقة والإحكام ؛ من حيث دل علىٰ ثبوت قول يوسف – عليه السلام – : ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ ،وبطلان قول المرأة : ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوآ﴾، وإما لإرشاده إلىٰ الشاهد، وهو تخريق القميص(٣).

وإنما أخرج الشاهد قوله مخرج الشرطية الدالة علىٰ الاحتمال في الآيتين ، مع علمه يقينا وقوع الشق من دبر؛ تنزيلا لهذا المحتمل في الشرطية الأولىٰ منزلة

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥٩ ، وأبو السعود ٤/ ٢٦٨ ، وروح المعاني للألوسي ٦/ ٤١٢.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٠٤ ، وحاشية الشهاب علىٰ تفسير البيضاوي ٥/ ١٧٠ ، وروح المعاني للألوسي ٦/ ٤١٢.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ٤٦٠ ، وحاشية الشهاب ٥/ ١٧٠ ، وروح المعاني ٦/ ٤١٢ .

الظاهر في الثانية ، وتنزيلا للظاهر في الشرطية الثانية منزلة المحتمل في الأولىٰ؛ تحقيقا لكمال العدل والإنصاف ، وتمام المساواة بين الخصمين المتنازعين من جانب ، ومبالغة وتأكيدا – من جانب آخر – علىٰ ثبوت ما دلت عليه الشرطية الثانية من صدقه وكذبها ، كأن المعنىٰ: إنا نحكم بصدقها وكذبه بمجرد وقوع الشق من القبل، وإن كان محتملا لأسباب آخر غير دفعها إياه ، لكنه ما وقع هذا الشق أصلا، فلا صدق لها[1].

والجمع بين " إن " الشرطية و " كان " في نسق واحد ، مع تقابلهما في الدلالة إنما يجري علىٰ تأويل الكون بالعلم؛ تنزيلا للعلم بالشيء منزلة استقباله؛ لما بينهما من التلازم ؛ لأن العلم لم يقع بعد ، وهذا التأويل مبناه علىٰ ما ذهب إليه المبرد من أن " كان " قوية الدلالة علىٰ الزمان الماضي ، فحرف الشرط لا يقلب ماضيها مستقبلا ، والمعنىٰ : إن يعلم كونه كذلك فقد ظهر الصدق ، ومثل هذا يقال في الشرطية الثانية[2] والله أعلم .

وإنما أوثرت " كان " في النظم الكريم دون " يعلم " ؛ لدلالتها علىٰ رسوخ قدم دلالة القميص وشهادته في هذا المقام ، وندائها علىٰ حصول القد علىٰ وجه الجزم والتحقيق ، وإنما النزاع في تعيين جهته ، وهذا هو المطابق لمقام الشهادة ومقتضاها .

---

(١) ينظر حاشية الشهاب ٥/ ١٦٠ ، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٠/ ٦٩ ، وكتاب الانتصاف لابن المنير ٢/ ٤٦٠ – ٤٦١ ، وأبو السعود ٤/ ٢٦٩ ، وروح المعاني ٦/ ٤١٣

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٤ ، وروح المعاني للألوسي ٦/ ٤١٢ .

والسر في بناء الفعل من القد للمفعول في الجمل الثلاث إلىٰ جانب دلالته علىٰ تعيين الفاعل وظهوره ، وأنه ليس محلا للتنازع والخلاف هو القصد إلىٰ تحري الحق في القضية ، ونفي التهمة عن نفسه في الشهادة ؛ بالتحاشي عن إصدار الحكم في الدعويين قبل تبين الحكم وتحققه.

وأما ما قيل من أن نكتة ذلك هو التستر علىٰ المرأة فكلام[1] تعوزه الدقة ، ولا تساعد عليه القرائن ، بدلالة قوله – سبحانه – في مطلع الأحداث : ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ بإسناد فعل القد إليها وحدها صراحة .

وقد برزت هاتان الجملتان الشرطيتان في ثوب العكس البلاغي ومعرضه : ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ، ثم عكس الحكم في قوله: " وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين " ، وهذا في مقام الشهادة أوفىٰ دليلا ، وأكمل برهانا ، وأتم مساواة بين الخصمين المتنازعين ، وأدخل في التحقيق ، وأنفىٰ للشبهة ، وأبعد عن الشك والريبة ؛ لذا كان العكس – هنا – مما يقتضيه المقام ، وتدعوا إليه الحال؛ لتعانقه علىٰ تصوير كمال نزاهة الشاهد، ومدىٰ تحريه العدل والإنصاف بين الطرفين المتخاصمين .

ومن وجه آخر: فقد جاءتا متماثلتين مادة وأجزاء، متوازنتين تركيبا وبناء؛ فجاء حرف الشرط " إن " الدال علىٰ الاحتمال ، وعدم الجزم بحصول الشرط في مفتتح كل منهما ، وهذا له مغزاه ومؤداه في هذا المقام .

(١) ينظر البحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٢٩٨.

وجاء الفعل الماضي من الكون شرطا له في كل منهما ، ووقع القميص المضاف إلىٰ ضمير يوسف – عليه السلام – اسما للفعل الناسخ ، وفي موضع المسند إليه في الجملتين .

أما الخبر فكان جملة فعلية ، فعلها في كل منهما هو الماضي المبني للمفعول من القد خاصة ، وتعلق به في كلتيهما الظرف المجرور: " من قبل – من دبر "، وذلك علىٰ سبيل التضاد طباقا بينهما .

وجاء الجواب في كل منهما فعلا ماضيا متصلا بالفاء: " فصدقت – فكذبت"، وعلىٰ طريقة الطباق – أيضا .

وفي ختم كل منهما وقع التذييل: ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ مقررا ومؤكدا لمضمون جواب الشرط ، كما كان للطباق الواقع بين آخر كلمتين في فاصلتي الآيتين الكريمتين ، وكذا الواقع بين آخر كلمة في الفاصلة وبين جواب الشرط في كل منهما أثر كبير ، ودور ظاهر في تقرير الشهادة وتمكينها ، وهذا كله ينبئ في مقام الشهادة عن أن الشاهد كان حريصا علىٰ تحري العدل والإنصاف ، كلفا بتحقيق المساواة التامة بين الخصمين المتنازعين ، حتىٰ في العبارة، وهذا من لطف الله بنبيه يوسف – عليه السلام – ومن حفظه ورعايته له ، ومن تأنيسه وطمأنته في هذا الموقف المشحون ، الذي يعز فيه النصير ، ويضيع فيه الحق والعدل بين ميل النفس ، وزيغ الهوىٰ .

ومن أبرز هذه القرائن السياقية التي تعانقت علىٰ تصوير دلالات القميص، وتضافرت علىٰ إبراز محورية دوره ، وفاعليته في تنامي الأحداث وتصاعدها إيثار الفعل الماضي من الرؤية دون غيره في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن

دُبُرٍ قَالَ﴾ ، فإنه ذو إيحاء قوي بأن دلالة القميص علىٰ براءة يوسف – عليه السلام – وكذب المرأة ، وفرط جموح الشهوة لديها كانت في غاية الوضوح ، وشدة الظهور، وليس فيها نوع من لبس أو عماية ؛ لدلالته – من وجه – علىٰ أن الشاهد أو العزيز قد تبين أمر القميص بنفسه ، واطلع علىٰ مكان القد وجهته بشخصه، ورآها بعينه .

ولدلالته – من وجه آخر – علىٰ أن القد كان ظاهرا واسعا ، والشق كان كبيرا بينا ، وهذا مما يقوي حكمه ، ويعضد شهادته .

وتأكيد هذا من العطف في أول الجملة بالفاء خاصة ، ودخولها علىٰ " لما " التوقيتية التي أوثرت دون غيرها في ربط الشرط والجزاء : " فلما رأىٰ ... قال ..." ؛ لندائهما في هذا المقام علىٰ أن دلالة القميص علىٰ تلك النكات التي سبق تفصيل القول فيها كانت علىٰ وجه السرعة[1] ، وعلىٰ نحو من القوة ، فلم تستغرق الرؤية زمانا ، ولم تحوج الشاهد تأملا ، ولم تنعمه نظرا ؛ لشدة وضوحها، وغاية ظهورها، وهذا كله إنما يضيف إلىٰ تلك الدلالات رصيدا من القوة والثبوت في هذا الموقف المضطرب .

ومن أبرز هذه القرائن السياقية دلالة – أيضا – علىٰ مفصلية دور القميص، وتعميق إيحائه: تعقيب العزيز أو الشاهد – أولا – بالإعلان الصادح ، والحكم القاطع ببراءة يوسف – عليه السلام – مما قذفته به المرأة من المراودة ، وذلك بعد رؤية القميص مقدودا من دبر ، في قوله حكاية عنه : ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾، الذي أفاد – إلىٰ جوار ما سبق –

(١) ينظر روح المعاني للألوسي ٦/ ٤١٤ .

التعريض – علىٰ ألطف وجه وأخفاه – بكذب المرأة والتسجيل عليها بالزور والبهتان[1] ؛ إذ لو لم يكن للقميص كل هذا الأثر الفاعل لما أذعن لدلالته ، ولما أقر بحكمه ، ونزل علىٰ مقتضىٰ شهادته.

وتأكيد هذا من إخراج الحكم السابق مخرج التأكيد ؛ بإيثار " إن " واسمية الجملة : ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾ معقبا ذلك بالتذييل الجاري مجرىٰ المثل: " إن كيدكن عظيم " ، وهذا في مقام تحقيق الشهادة أقوىٰ وأبلغ ، وآكد في الإثبات وأدخل؛ لندائه علىٰ قناعته التامة ، وإذعانه الكامل لحكم القميص وشهادته .

والضمير في " إنه " راجع إلىٰ القد ، علىٰ معنىٰ : أنه ناشئ من احتيالكن ومكركن أيتها النساء ، وسبب عنه ، أو هو للأمر الذي وقع فيه التشاجر، وهو عبارة عن إرادة السوء التي أسندت إلىٰ يوسف – عليه السلام – ، وتدبير عقوبته بقولها : ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوآ إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ علىٰ معنىٰ: أنه من جنس مكركن واحتيالكن[2].

وقيل: هو للسوء. وهو نفسه ، وإن لم يكن احتيالا ، لكنه يلازمه[3].

وقال الزجاج : هو لقولها : ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوآ﴾"[4] .

وقال الماوردي: هو لهذا الأمر ، وهو طمعها في يوسف – عليه السلام –، وجعله من الحيلة مجاز[1].

---

(١) ينظر المرجع السابق ٦/ ٤١٤ .

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٤٦١ ،وحاشية الشهاب ٥/ ١٧١ ، وروح المعاني للألوسي ٦/ ٤١٤.

(٣) ينظر روح المعاني للألوسي ٦/ ٤١٤.

(٤) ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٠٤ .

واختار أبوا السعود الوجه الأول ، وتكلف له بما تكلف[٢]، والأولىٰ ترك الأمر علىٰ إطلاقه ؛ لتذهب النفس في تصور المراد وتقديره كل مذهب ممكن ؛ فإنه الأوفق – من جانب – بمقتضىٰ حال النسوة في عظم الكيد وضخامته ، والمدلول عليه من قوله : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ ؛ فإن احتمال الضمير كل هذه المراجع من أمارات عظم الكيد ومن لوازمه .

وهو الأبلغ – من جانب آخر – في تصوير عظم الفتنة ، وشدة المحنة، وقسوة الابتلاء الذي تعرض له يوسف – عليه السلام – في قصر العزيز.

وتأكيد ما نحا إليه البحث من إيثار ضمير الغيبة إنه " في المسند إليه دون الاسم الظاهر ، وهو ضمير يلفه قدر من الغموض ، ونوع من الإبهام الذي يتسع لكل هذه المراجع؛ نظرا لحاجته إلىٰ المفسر؛ ولذلك يؤثرونه دون غيره في القيام مقام الشأن أو القصة.

ومن إيثار لفظ الكيد خاصة تلك التي أسندت مع جارها إلىٰ ضمير الغيبة السابق ، بعد إضافتها إلىٰ ضمير خطاب النسوة في قوله: ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ مِن كَيْدِكُنَّ وهي من الألفاظ ذات الدلالة الواسعة، وهذا ما يؤكد احتمالية الضمير كل المراجع السابقة، ويجعل لها وجها ، ولو باعتبار ما؛ فإنها جميعا مما يكاد به .

---

(١) ينظر تفسير النكت والعيون للماوردي ٣/ ٢٨ -٢٩ ، تحقيق : السيد عيد عبد المقصود عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ ٠

(٢) ينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٩ ، وروح المعاني ٦/ ٤١٤ ٠

ومن تعميم الخطاب المدلول عليه من إضافة لفظ الكيد في الجملتين إلىٰ ضمير خطاب جماعة النسوة ، مع صدوره في هذا الموقف عن امرأة العزيز خاصة؛ تنبيها علىٰ عراقتهن في الكيد ، وتأكيدا علىٰ أنه ضارب بجذوره في سمتهن وأخلاقهن(١).

وإنما وصف كيدهن بالعظم ؛ لفرط لطفه ، وشدة علوقه بالقلب ، وقوة تأثيره في النفس(٢).

ومن طلب العزيز – ثانيا – من يوسف – عليه السلام – في إثر الحكم ببراءته أن يعرض عن الخوض في هذا الأمر الذي وقع فيه التنازع والتخاصم ، ومن تنحيته باللائمة علىٰ امرأته وحدها ، ونسبته إياها إلىٰ الخطأ دونه في قوله : ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩﴾.

ووجه هذا من نداء العزيز يوسف – عليه السلام – علىٰ هذا النحو الذي حذف منه حرف النداء " يوسف " ، وتقديم النداء السابق علىٰ المطلوب الأصلي والمقصود الأهم : ﴿أعرض عن هذا﴾ فإن هذا – باعتبار – من فرط تلطفه به، وشدة تقريبه إياه ، ومن كمال تفطنه – عليه السلام – للحديث الملقىٰ إليه باعتبار آخر(٣).

(١) ينظر أبو السعود ٤/ ٤٦٩ ، روح المعاني ٦/ ٤١٥

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٤٦١ .

(٣) ينظر المرجع السابق ٢/ ٤٦١ .

ومن إيثار فعل الطلب من الإعراض خاصة في خطاب يوسف – عليه السلام-: " أعرض عن هذا " ؛ فإن الإعراض متاركة للأمر علىٰ ألطف وجه وألينه ، وأيسره وأهونه ، وهذا -أيضا – من تلطفه به ، وإدنائه إياه .

ومن ذكر الأمر المطلوب الإعراض عنه باسم الإشارة القريب خاصة " هذا "؛ استهجانا للتصريح به ، وتنبيها بالقرب إلىٰ شدة حقارته ، وغاية وضاعته.

ومن طلب العزيز الاستغفار من امرأته خاصة ، ونسبته الذنب إليها دونه – عليه السلام – حسبما تنبئ عنه إضافة الذنب إلىٰ ضمير خطابها في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾.

ومن تحقيق نسبتها إلىٰ الخطأ علىٰ وجه مؤكد ؛ من خلال إيثار حرف التأكيد " إن " ، واسمية الجملة المنبئة عن الثبوت والدوام ، وإيثار الفعل الضارب بجذوره في أعماق الزمن السحيق من الكون في جملة خبر الحرف الناسخ ، وإيثار اسم الفاعل " الخاطئين " في الفاصلة دون المخطئين ، وما وراء هذه الصيغة من إيحاء قوي بالإصرار والتعمد ، وذلك في قوله : ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩﴾ الذي وقع في موقع التذييل التعليلي الذي جاء مقررا ومؤكدا لمضمون الطلب السابق عليه في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾.

وقرينة هذا من مجيئه مفصولا غير معطوف ، علىٰ طريقة الاستئناف البياني الناشئ من سؤال أثارته الجملة السابقة ، كأنه قيل : ما علة طلب الاستغفار منها دونه ؟ فجاءت جملة التذييل مفصولة غير معطوفة ؛ لتجيب عن هذا الذي قدر وقوعه في أنفس المستمعين ، ولا شك في أن هذا كله مما يعمق دلالة القميص

علىٰ براءة يوسف – عليه السلام – وكذب المرأة ، ويؤكد في هذا المقام أن حجته كانت قاطعة ، وأن شهادته كانت حاسمة.

ومن هذه القرائن السياقية التي تضافرت علىٰ تقرير دلالة القميص في النسق الكريم: ذيوع خبر المراودة وانتشاره ، حتىٰ لاكته ألسنة نساء في المدينة ، وكذا اعتراف المرأة نفسها بمراودتها إياه صراحة ، وعلىٰ نحو مؤكد ، وذلك في قوله – أولا – : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ (يوسف : ٣٠) ، وقوله – ثانيا – : ﴿قالت فذالكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ (يوسف : ٣٢) .

ووجهه في الآية الأولىٰ من إخراج النسوة عبارتهن مخرج الاستفهام الإنكاري المشوب بالتعجب والاستغراب : ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ﴾ إسنادهن المراودة إليها دونه مرتين ؛ مرة بتقديم المسند إليه " امرأة العزيز " علىٰ الخبر الفعلي المثبت ، ومرة بإسناد الفعل ﴿تُرَٰوِدُ﴾ إلىٰ ضمير امرأة العزيز ، ومن إيثارهن صيغة المضارع ﴿تُرَٰوِدُ﴾ ووضعها في موضع الماضي ، وما وراء ذلك من دلالة علىٰ استحضار الصورة ، واستدعاء المشهد ، حتىٰ كأن السامع يرىٰ ويشاهد.

ومن نسبتهن إياها دونه إلىٰ الضلال ، وإخراج عبارتهن في ذلك مخرج الجزم والتحقيق : ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ ؛ بإيثار " إن " واسمية الجملة المنبئة عن الثبوت والدوام ، ودخول اللام في الخبر ، وإيثار فعل الرؤية فيه دون

غيره ، ووصف الضلال منكرا بالمبين ؛ فإن هذه الخصوصيات كلها إنما تناسلت من شدة وضوح الأمر وظهوره ، حتىٰ صار ماثلا للعيان .

ووجهه في الآية الثانية من شدة عهرها ، وفرط تفحشها؛ بتهديدها إياه صراحة بالسجن والصغار إن لم ينزل علىٰ مرادها ، وذلك علىٰ الوجه الذي سبق تفصيله وتحليله في القرائن الحالية.

ومن هذه القرائن السياقية تسمية دلالة القميص وحده آية في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ ؛ وذلك بناء علىٰ ما ذهب إليه بعض المفسرين من حصر تأويل معنىٰ " الآيات " في دلالة قد القميص وحده، دون غيره مما فسرت به ، وقد خرج الجمع في اللفظة مخرج التفخيم والتعظيم(١).

والسر البلاغي في تسمية قد القميص من دبر آية هو المبالغة في تأكيد وضوح دلالته علىٰ براءة يوسف وكذب المرأة ، وزيادة التنبيه علىٰ إصابته المحز، وتطبيقه المفصل في تقرير عفته ، وتمكين نزاهته مما نسل إليه من المراودة ؛ فإن الآية : هي الأثر الواضح ، والعلامة الظاهرة التي يفضىٰ منها إلىٰ غيرها ، كأعلام الطريق المنصوبة للهداية(٢).

فإذا جاوزنا هذه القرينة الدالة سريعا إلىٰ مطلع الأحداث ومستهلها وجدنا تقرير النسق الكريم قد المرأة قميص يوسف من دبر في قوله : ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ

(١) ينظر روح المعني للألوسي ٦/ ٤٢٨ .

(٢) ينظر المفردات في غريب القرآن للراغب أيا ص١٠١ ، ولسان العرب لابن منظور أيا ١/ ١٨٥ وما بعدها

مِن دُبُرٍ﴾ من أبرز المعالم السياقية التي تعانقت علىٰ تصوير دلالة القميص في هذا المشهد، وتعظيم دوره ، علىٰ نحو مؤكد وثابت ؛ من خلال وقوع الجملة في موقع الحال ، علىٰ أن تأويل المعنىٰ : "وقد قدت قميصه من دبر"(١).

ومن إيثار صيغة الماضي من مادة القد خاصة ، وما وراءها من إيحاء بقوة الجذب ، وشدة النزع ، واتساع الشق.

ومن إسناد فعل القد إليها دونه صراحة ؛ للإيذان بمبالغتها في منعه، وحرصها الشديد علىٰ كبحه ، إما خوفا من فوات الفرصة ، وانفلات المحبوب، وإما خوفا من العار والفضيحة(٢).

كما يصور ـــ من وجه آخر ـــ شدة استعار الشهوة وجنونها لديها، مع أن مثلها في العقل والمكانة لا يتصور أن يحدث منه ذلك.

ومن تعيين جهة القد ، وتحديد كونها " من دبر" خاصة، وما وراء ذلك من إيحاء قوي بأنه ـــ عليه السلام ـــ كان الأسبق إلىٰ الباب، وهذا يقتضي أنه كان هو الهارب منها، وهي المطاردة له إلىٰ غير ذلك مما سبق تفصيله وتحليله من قرائن سياقية كانت أم مقامية – مما كان له أثر بارز في تصوير دلالات القميص وتعميقها، وتقريرها وتوكيدها ، وتعظيم دور القميص ، وفاعليته في تحريك الأحداث قدما وتناميها وتصاعدها نحو غاياتها وأهدافها ، وهذا يفسر لنا جانبا من هذا الحضور الطاغي للفظة القميص في سياق هذا المشهد ، وجنبات تلك المحنة التي ألمت بيوسف – عليه السلام – في قصر العزيز ، وهو في عنفوان أشده ، وفي أوج قوته ؛ ليكون " هذا القميص المقدود من دبر صورة حية، ومثلا

(١) ينظر البحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٢٩٧ .

(٢) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٠/ ٦٦

شاخصا ، وأنموذجا أسمىٰ لكل هارب من فتنة تنوشه بأظفارها ، ولكنه ينجوا منها ، ويبقىٰ أثرها اليسير فيه دليل سلامته من شرورها العظيمة ، وبرهان نجاته من إفكها المبين، وأين من ينجوا من فتنة نجاة تامة ؟ !(١)

*** *** ***

(١) نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – لمحمد المرواني ص٢ بتصرف يسير ٠

المحور الثالث : أثر القرائن في تصوير دلالة القميص على حياة يوسف – عليه السلام – والإعلام بقرب لقائه"

تمثل دلالة القميص علىٰ حياة يوسف – عليه السلام – والإيذان بقرب لقائه الحلقة الختامية من حلقات القميص في سورة يوسف ، وقد جاء هذا في إثر مشهد العفو والصفح الجميل الذي امتن به يوسف علىٰ إخوته ؛ حين وقفوا بين يديه منكسرين ، معترفين بخطئهم ، بعد أن عرفهم نفسه ، وكشف لهم عن حقيقة مقامه، وذلك في قوله – سبحانه – : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (يوسف : ٩٣ إلىٰ ٩٧) ، حيث تكرر ذكر القميص في هذا الموضع خمس مرات ، ذكر في واحدة منها بصريح لفظ القميص ، علىٰ هذا النحو " اذهبوا بقميصي " ، وذكر في اثنتين منها بضمير الغيبة المفرد الراجع إلىٰ القميص في قوله : ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ " وأما في الموضعين الآخرين فقد ذكر فيهما باسم ظاهر يقوم مقام القميص ، وذلك في قوله : " هذا – ﴿رِيحَ يُوسُفَ﴾ ، وهنا تقتضينا منهجية البحث أن نقف في مستهل هذا المحور لنسجل هذا التفاوت ، ونرصد هذا التباين بين حضور القميص ودورانه قلة وكثرة في المحاور الثلاثة التي يقوم عليها بنيان الدراسة في هذا البحث ، حيث نجد القميص في المحور الأول هو أضعف الأقمصة الثلاثة حضورا ، وأقلها دورانا؛ لورود ذكره هنالك مرة واحدة ونجد القميص في

المحور الثاني هو أقواها حضورا وأكثرها دورانا ، حيث ورد ذكره هناك سبع مرات .

وأما هذا القميص الثالث فجاء في مرتبة وسط بين القميص الأول والقميص الثاني ؛ فكان في حضوره ودورانه فوق الأول ودون الثاني ، وذلك علىٰ النحو الذي سبق تفصيله في مطلع هذا المحور موضع الدراسة .

وهذا التفاوت البين بين الثلاثة الأقمصة – علىٰ النحو السابق – من شأنه أن يثير التنبه ، ويطري النشاط ، ويبعث النفس علىٰ الاهتمام ، ويجعل القلب شغوفا باستكناه أسراره ، وتحسس مناطاته وأسبابه .

أما القميص الأول فكان نذير فقد وضياع ، ومبعث شجن وألم ، ومثير لوعة وحسرة؛ حيث كان دليلا علىٰ بداية حزن يعقوب – عليه السلام – وسببا مباشرا من أسباب عماه بعد حين ، فكان الاقتصار في حضوره علىٰ مرة واحدة هو الذي يتطابق – من وجه – مع حال النفس الإنسانية التي تنكفئ علىٰ أحزانها وتتمحور حول ذاتها في هذه المواقف .

وهو الذي يتناغىٰ – من وجه آخر – مع طبيعة المقام الذي يتسم بالضيق؛ بسبب الحزن؛ تخفيفا من مرارة الحزن ووطأته ، وشدة الألم وقسوته ، وهدهدة لمشاعر الانفعال والغضب التي بدت بوادرها علي ملامح يعقوب – عليه السلام – والتي قد يكون تكرار ذكر القميص عدة مرات منشأ لإثارتها ،وسببا لبعثها ،أو مر تقي لتصاعدها وتناميها .

وأما القميص الثالث فجاء علي النقيض من القميص الأول ، وعلي العكس منه تماما ؛ فكان مبعث سعادة وفرح ،ومنشأ بهجة ومسرة ؛ إذ كان دليلا علىٰ

نهاية سنوات حزن يعقوب – عليه السلام – وسببا فاعلا في شفاء أحزانه ، وذهاب أسقامه ، وارتداد البصر إليه مرة أخرىٰ ، فكان تكرر ذكره عدة مرات نزولا – من وجه – علىٰ مقتضىٰ حال النفس الإنسانية التي تتسم بالانفتاح ، وتتصف بالإقبال في هذه المواقف .

وتلبية – من وجه آخر – لحاجة المقام الذي يتسم بالسعة والانبساط ؛ تصعيدا لكل هذه المشاعر ، وإذكاء لكل هذه الأحاسيس.

وأما القميص الثاني فكان برهان حق علىٰ براءة يوسف وسلامته ، وشاهد صدق علىٰ عفته ونزاهته ، فكان دورانه أكثر ، وحضوره أعظم ؛ تناغيا مع مقامات الشهادة التي تقتضي الظهور والبيان، والدقة والإحكام ، والحسم والقطع ؛ حتىٰ لا تحوم حولها شبهة ، ولا يعترضها شك أو ريبة.

ونداء علىٰ أنه قطب الرحا في تحريك خطا الأحداث وتتابعها ، وتصاعدها وتناميها ، وأن دلالته هي المعول عليها وحدها في فك رموز هذه القضية المثيرة، وإزالة غموضها، والحكم في الدعوىٰ لطرف علىٰ طرف آخر.

والذي يتأمل ما وراء القميص من دلالات في مواضعه من هذا المحور الأخير ، وما يستكن خلفه من أسرار ونكات يجد أنه يمثل – من وجه – دليلا حيا ملموسا ، وبرهانا ماديا محسوسا علىٰ حياة يوسف – عليه السلام – وبقائه ، وأمارة دامغة علىٰ أنه ما زال يرفل في طيب العيش ورغده ، وينعم بهناءة العمر وأمده[1]، وهذا هو المعنىٰ المحوري الذي يدور القميص علىٰ إثباته في هذا المشهد الختامي من القصة الكريمة.

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٠٤ ، والبيضاوي ٣/ ١٧٦، والبحر المحيط ٥/ ٣٤٦ .

ويمثل – من وجه آخر – بريد شوق لهيب ، وبشارة وصال قريب يوشك أن يجمع بين متحابين طال أمد افتراقهما ، ونأىٰ مكان التقائهما ، وهما يوسف وأبوه يعقوب – عليهما السلام –[1].

وهذا المعنىٰ يخرج من رحم المعنىٰ الأول ويتناسل منه ؛ لأنه من لوازمه ، ومن مقتضياته ؛ إذ الأول كالدليل عليه ، والبرهان المؤكد لصحته .

كما يؤذن – من وجه ثالث – بصدق إخوة يوسف – عليه السلام – فيما يبلغونه أباهم يعقوب – عليه السلام من خبر يوسف وأمره ، وينبئ عن أنهم جاءوا من عنده هذه المرة بنبأ يقين[2].

وإلىٰ هنا ، وبعد وقوف البحث مع بعض دلالات القميص في هذا المحور، واستكناهه بعض أسراره ونكاته نجد لزاما علينا أن نقف نزولا علىٰ منهجية البحث – أيضا – ومقتضاها – لنسجل سمة من سمات القميص في السورة الكريمة ، وهي التقابل التام ، والتغاير البين بين دلالة هذا القميص الثالث، وبين دلالة القميص الأول ؛ ففي الوقت الذي مثل فيه القميص الأول أمارة دامغة ، وبرهانا ساطعا علىٰ كذب إخوة يوسف ، وصور زيف زعمهم أن يوسف قد مات، وأن الذئب قد أكله، نجد القميص الثالث ذا دلالة مقابلة ومضادة له تماما ،

---

(١) ينظر الأنساق الثلاثية في قصة يوسف – عليه السلام – لأبي عبد المعز ، ملتقىٰ أهل الحديث ، ومنتدىٰ أهل القرآن وعلومه ، سبتمبر ٢٠٠٧م ، ونظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – لمحمد المرواني ص٢ ، وقمصان يوسف . د/ حسن الأمراني ، جريدة المحجة ، فبراير ٢٠١٢م ، العدد ٣٧٣

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٢/ ١١٤ .

فقد جسد دليلا حيا، ومعلما بارزا علىٰ حياة يوسف – عليه السلام – وعلىٰ صدق إخوته فيما يبلغونه أباهم يعقوب من أمر يوسف وشأنه .

وفي الوقت الذي كان فيه القميص الأول نذير فقد ونأي بعيد كان القميص الثالث سفير بشارة بوصال قريب .

وفي الوقت الذي جسد فيه القميص الأول نقطة بداية لأحزان يعقوب – عليه السلام – ؛ إذ كان سببا مباشرا في ضعفه ووهنه ، وعمىٰ بصره ، مثل القميص الثالث خط النهاية لكل أحزانه ، وجميع أسقامه ، وكان أداة فاعلة في ارتداد بصره إليه مرة أخرىٰ ، وهذا كله يعكس محورية دور القميص، ويؤكد فاعليته في تتابع الأحداث وتناميها ، وأنه ليس مجرد قميص للباس والزينة، بل هو رسالة تحمل في ثناياها دلالات وإشارات، ورمز دال علىٰ أسرار ونكات.

فإذا تجاوزنا كل هذه الدلالات إلىٰ القرائن حالية كانت أم سياقية وجدناها تتعانق علىٰ تصوير هذه الدلالات ، وإبراز هذه النكات في صورة شاخصة للعيان، ماثلة للأفهام.

فإذا ولينا وجهنا شطر القرائن الحالية لتقرير هذه الحقائق وتأكيدها وجدناها تتجسد في طبيعة الموقف الذي لابس الأمر بالذهاب واقترن به في قوله: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾؛ إذ هو مقام سؤال وطلب ؛ بدلالة ما ورد من أن يوسف – عليه السلام – لما عرف إخوته نفسه سألهم عن أبيهم : ماذا فعل أبي بعدي ؟ قالوا: ذهب بصره من الحزن . فعند ذلك أعطاهم قميصه ، وطلب إليهم قائلا: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾[1]،

(١) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٦ ، وجامع البيان للطبري ١٦/ ٢٤٨

فإنه يبرز – علىٰ وجه التحقيق – ما لهذا القميص من أثر فاعل في إنباء يعقوب – عليه السلام – بحياة يوسف – عليه السلام – ، وإعلامه بقرب لقائه ؛ لاقتصار يوسف عليه وحده في إبلاغ الرسالة ، وتحقيق المراد ؛ بما يحمله من عبق ريحه ، وذكىٰ أريجه وشذاه.

وتأكيد هذا – أولا – من مقتضىٰ حال يوسف – عليه السلام – في العلم ؛ إما بما يتعلق بهذا القميص من خوارق العادات ، انطلاقا مما ذهب إليه المحققون من العلماء من أن يوسف – عليه السلام – إنما عرف أن إلقاء القميص علىٰ وجه أبيه يوجب عودة البصر وقوته إنما كان بوحي من الله – تعالىٰ – وبرهان هذا ما ورد في الأثر من أن جبريل – عليه السلام – هو الذي أمره بإرساله إليه ، وإلقائه علىٰ وجهه(١).

وإما بعلمه بحال يعقوب – عليه السلام – وأنه ما صار أعمىٰ إلا من كثرة البكاء ، وشدة الحزن ، وضيق القلب ، وذلك علىٰ الوجه الذي تقدم ذكره ، فإذا ألقىٰ علىٰ وجهه قميص البشارة المؤذن بحياة يوسف ، المعلم بقرب لقائه انشرح صدره ، وحصل في قلبه من الفرح الشديد ، والسعادة الغامرة ما يقوي الروح ، ويزيل الضعف ، فحينئذ يقوىٰ بصره ، ويزول عنه عماه(٢).

وتأكيده – ثانيا – من مقتضىٰ حال يعقوب – عليه السلام – في ارتداد البصر إليه علىٰ وجه السرعة ، ومن دون مهلة أو تراخ ، وذلك في إثر إلقاء القميص علىٰ

(١) ينظر التفسير الكبير للرازي ٩/ ١٤٥ ، وروح المعاني للألوسي ٧/ ٥٠ ، وتفسير المراغي ١٣/ ٣٦ ، الطبعة الأولىٰ ١٩٦٤ ، شركة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر .

(٢) ينظر التفسير الكبير ٩/ ١٤٦ .

وجهه مباشرة ، والمدلول عليها من قوله : ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ ؛ فإنه يشير – في جلاء – إلىٰ قوة فاعلية هذا القميص، وما يتعلق به من أسرار ونكات ، ومعان ودلالات ، وأنه ليس مجرد لباس عادي، بل هو دليل شاخص ، وبرهان ساطع علىٰ هيئات وأحوال صدرت عن لابسه ، أو المتعرض له .

وأما قرائن السياق فيصعب حصرها ، ويعز عدها ، لكن أعمقها إيحاء، وأوفاها تصويرا هو تكرار لفظ القميص في هذا النسق عدة مرات ، ثلاثا منها بالاسم الظاهر حسبما سبق تفصيله ، واثنتين منها بضمير الغيبة الراجع إلىٰ القميص نفسه ، وضمير الغيبة هو عين الاسم الظاهر في المعنىٰ .

وسر هذا التكرار ونكتته تكمن في إثارة التنبه ، وتوجيه العناية وتوفيرها إلىٰ الاهتمام بهذا القميص ، وإثارة الحس والشعور إلىٰ ما يتعلق به من أثر ، وما يرتبط به من دلالة ، وتقرير أنه المعول عليه وحده في ارتداد يعقوب – عليه السلام – بصيرا كما كان وتمكينه .

ومن وجه آخر: فإن تكرار لفظ القميص – إظهارا وإضمارا – عدة مرات هو الذي ينسجم مع طبيعة النسق الكريم الذي خرج مخرج البشارة التي تمتلئ بها النفس انشراحا وانبساطا ، وإقبالا وانفتاحا، وشعورا بالأريحية والنشوة ، فهو قميص الحبيب الذي طال أمد انتظاره ، وذكرىٰ البعيد الذي دنا وقت لقائه ، فالنفس لا تمل ذكره ، والسمع لا ينبو عن ترديد لفظه.

إن تكرار لفظ القميص – هنا – وعلىٰ هذا النحو المشار إليه سلفا ينادي علىٰ أنه قميص فريد في جنسه ، وحيد في صفته؛ فهو ليس مجرد ثوب عادي داخل في ضمن متاع إخوة يوسف ، لا رمز فيه ، ولا دلالة ، ولا إلهام(١).

وثاني أبرز هذه القرائن السياقية وأوفاها تصويرا وقوع لفظ القميص مجرورا بالباء في قوله : ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ ، وهذا هو الموضع الوحيد الذي ذكر فيه القميص بلفظه صراحة .

وهنا نجد نوعًا من التباين بين الأقمصة الثلاثة في محاور البحث؛ فالقميص الأول عدىٰ الفعل إليه بحرف الاستعلاء: ﴿وجاءوا علىٰ قميصه بدم كذب﴾، والقميص الثالث عدىٰ الفعل إليه بالباء: "اذهبوا بقميصي هذا"، والقميص الثاني عدىٰ الفعل إليه بنفسه من غير واسطة: ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾؛ فحيث كان القميص ملبوسًا عدىٰ الفعل إليه بنفسه كما في الموضع الثاني، وحيث كان القميص غير ملبوس عدىٰ الفعل إليه بحرف الجر، وقد سبق بيان سر هذا في المحور الأول والثاني، وسيأتي بيانه لاحقًا في الحور الثالث إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه الباء الداخلة علىٰ القميص إما أن تكون للتعدية ، علىٰ أن المعنىٰ، اذهبوا قميصي، أي: احملوا قميصي(٢).

(١) يراجع مقال : نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – ص٢ .

(٢) ينظر البحر المحيط ٥/ ٣٤٤ ، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١١/ ٢٠٧-٢٠٨، والدر المصون للسمين الحلبي ٦/ ٥٥٦ .

وإما أن تكون للمصاحبة أو الملابسة، علىٰ أن يكون المعنىٰ: اذهبوا مصحوبين، أو متلبسين به، وحينئذ يكون القميص المجرور في موضع الحال[1].

وهذا الوجه الأخير هو الذي ترجحه طبيعة الموقف وتقتضيه ؛ لفرط تناغمه مع سوق الكلام مساق البشارة بحياة يوسف – عليه السلام – والإيذان بقرب لقائه؛ لقوة دلالته علىٰ فاعلية القميص ، ومركزية دوره في هذا المقام ؛ لندائه علىٰ أن القميص صار دالا بنفسه ، ذاهبا برسمه ، وهم سائرون في ركابه ، مصاحبون لجنابه، وهذا إنما يومئ إلىٰ ارتفاع حال صاحبه إلىٰ مكانة عالية، له منها سلطان وأعوان ومال؛ فقد أصبح عزيزًا، قوي القدرة، نافذ الإرادة.

واختلف في القميص المذكور علىٰ أقوال ، فقيل : هو القميص الذي كساه الله – تعالىٰ – إبراهيم – عليه السلام – ؛ ألبسه إياه جبريل حين ألقاه النمروذ في النار ، ثم كساه إبراهيم – عليه السلام – إسحاق ، ثم كساه إسحاق – عليه السلام – يعقوب ، وجعله يعقوب – عليه السلام في قصبة من فضة في عنق يوسف؛ تعويذة له ؛ لشدة خوفه عليه[2] ، وهذا قول تعوزه الدقة ، لضعف انسجامه مع عناصر النظم وقرائن السياق ، وبخاصة قول يعقوب – عليه السلام –: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ، فإنه ذو إيحاء قوي بأنه كان من قمصان يوسف التي كانت عليه، وأنه كان لابسا له ، ولم يكن في تعويذته المذكورة[3].

---

(١) ينظر البحر المحيط ٥/ ٣٤٤ ، واللباب ١١/ ٢٠٨ ، والدر المصون ٦/ ٥٥٦ .

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٠٣ ، وأبو السعود ٤/ ٣٠٥ ، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢/ ٥٥٤ ، تحقيق : محمد علي شاهين ، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

(٣) ينظر روح المعاني للألوسي ٧/ ٥٠ .

ومن وجه آخر: فإن ما ذكر من أنه كان موضوعا في قصبة من فضة معلقة في عنق يوسف ؛ تميمة له مما يجل عنه مقام الأنبياء ، ويتنافىٰ مع مقتضىٰ حالهم في التوحيد والعصمة ؛ فإن ما ذكر شرك صريح.

وقيل: هو القميص الذي كان مقدودا من دبر ، وقد أرسله يوسف – عليه السلام –؛ ليعلم أبوه يعقوب أنه قد عصم من الفاحشة ، وهذا القول في البعد أظهر من أن يستدل عليه ، والله أعلم(١).

وذهب قوم إلىٰ أنه القميص الذي كان يوسف لابسا له ، متدرعا به ، وهذا القول هو الذي رجحه كثير من العلماء(٢) ؛ لأنه – من وجه – الأدخل في الغرابة، الأبلغ في الدلالة علىٰ الكرامة ، الأقوىٰ في إدخال كمال السرور والبشر علىٰ نفس يعقوب – عليه السلام – ؛ لندائه علىٰ تحقق حياة يوسف وتأكدها ، وإيذانه بقرب لقائه(٣).

وهو الذي يتوافق – من وجه آخر – مع عناصر السياق وقرائنه ؛ بدلالة إتباعه باسم الإشارة " هذا " المبين له ، أو المبدل منه ، وبدلالة إضافة القميص إلىٰ ضمير نفسه ، والريح إلىٰ ظاهر اسمه ؛ فإن الإضافة تكون لأدنىٰ اعتبار وملابسة(٤).

---

(١) ينظر البحر المحيط ٥/ ٣٤٤ ، وروح المعاني ٧/ ٥٠ .

(٢) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٢٧٨ ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، والبحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٣٤٤ ، وتفسير الشيخ المراغي ١٣/ ٣٦ ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/ ١١٥ .

(٣) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٠/ ٢١٢

(٤) ينظر روح المعاني للألوسي ٧/ ٥١ .

أما ثالث أبرز هذه القرائن ، وأدخلها في تعميق دلالة القميص ، وإبراز محورية دوره فيكمن في تعويل النسق الكريم في إثبات المعاني السابقة وتمكينها علىٰ دلالة القميص وحدها ، دون غيرها ، وذلك من عدة وجوه.

الوجه الأول: من تعليق رجوع يعقوب – عليه السلام – بصيرا كما كان علىٰ إلقاء القميص خاصة علىٰ وجهه ، وذلك في قوله حكاية عن يوسف : ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ ، وقوله في تصوير هيئة الإلقاء: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾.

وبرهان هذا – أولا – من ترتيب الإتيان في الآية الأولىٰ ، والارتداد في الآية الثانية علىٰ إلقاء القميص علىٰ وجه يعقوب مباشرة ، ومن دون مهلة أو تراخ؛ بقرينة اتصال الجواب ﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ يَأۡتِ في الآية الأولىٰ بالطلب: ﴿فألقوه﴾ المضمن شرطا محذوفا – علىٰ أحد الوجوه – من دون فصل ، وعطف الفعل من الارتداد علىٰ جملة جواب " لما " في الآية الثانية بالفاء التي تقتضي الحصول علىٰ وجه السرعة والقوة.

وإنما أوثر الفعل من الإتيان في جواب شرط الآية الأولىٰ ، دون الفعل من الارتداد ، كما في الثانية؛ لأنه في موضعه – الأبلغ في تصوير المقام ، الأقوىٰ في مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال ؛ لما فيه من التعجيل بالمسرة التي تمتلئ بها النفس انشراحا وانبساطا؛ لدلالته علىٰ أن صيرورة يعقوب – عليه السلام – وارتداده بصيرا؛ بإلقاء القميص علىٰ وجهه أمر ثابت ومحقق ، ومقطوع

بحصوله، وإنما الكلام في تسبب الإلقاء لإتيانه علىٰ هذه الهيئة ، وأن يكون علىٰ أحب ما يكون من المعافاة وسلامة البصر(١).

وهذا يقتضي ترجيح حمل الإتيان علىٰ حقيقته، دون أن يكون مجازا عن الصيرورة ، علىٰ أن المعنىٰ : يأت إلي وهو بصير، وتحقيق هذا وتعضيده من نسق الكلام بعده من قوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾(٢).

وإنما لم يشمل يعقوب – عليه السلام – الأمر السابق في قوله : "وأتوني بأهلكم أجمعين " ، مع الجزم بإتيانه ؛ بقرينة إيثار صيغة المضارع " يأت " في جواب الطلب ، كأنه شرع في الإتيان ، وتلبس به وقت التكلم ؛ وثوقا بمحبته، ومراعاة لحسن الأدب ، وكمال البر في مخاطبة أبيه ؛ حيث احترز عن أمر إخوته بالإتيان به ؛ تجنبا لما يشعر بإجباره علىٰ الأمر رغما عنه ؛ فإن مقام يعقوب – عليه السلام – يجل عن ذلك ، ومن ثم ترك الأمر إلىٰ اختياره ؛ لما سبق من نكتته، والله أعلم(٣).

ومن وجه آخر: فقد أوثر الفعل من الارتداد في الجملة المعطوفة علىٰ جواب الشرط " لما ": ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ في الآية الثانية ؛ لكمال تطابقه ، وتمام تناغمه مع الغرض المسوق لأجله الكلام ، وهو البشارة بحياة يوسف ودنو لقائه؛ لما فيه من المبالغة في الدلالة علىٰ سرعة عودة البصر إليه بإلقاء القميص علىٰ وجهه ، فإن الارتداد: هو " انقلاب الشيء علىٰ نحو من القوة إلىٰ حال كان

(١) ينظر روح المعاني ٧/ ٥٠

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٠٣ .

(٣) ينظر روح المعاني ٧/ ٥٠ .

عليها"[1]، وهذا ما تشعر به الرعدة التي في صوت الراء ، ويصوره تضعيف الدال وشدها ، وهذا يقتضي السرعة ويستلزمها .

وتأكيد هذا من إيثار الفاء في عطف الفعل دون غيرها : ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرًا﴾، فإن فيها زيادة تأكيد علىٰ أن هذا الارتداد كان علىٰ وجه السرعة ، ومن دون مهلة أو تراخ.

ومن إيثار " بصيرا " في الموضعين ، علىٰ مثال " فعيل " من أبنية المبالغة، خلافا لبعضهم[2] ؛ للدلالة علىٰ التمكن في الصفة ، والزيادة فيها ؛ فإنه الأوفق بالغرض الذي سيق لأجله الكلام ؛ لما فيه من إشعار بأن بصره عاد أقوىٰ مما كان.

ومن إيثار فعل الإلقاء خاصة في جواب " لما ": " فلما أن جاء البشير ألقاه علىٰ وجهه " فإن الإلقاء طرح بقوة ، وهذا - من وجه – يقتضي السرعة ويستلزمها.

ويقتضي – من وجه آخر – ترجيح أن يكون الوجه مستعملا في حقيقة معناه، وليس مجازا عن الجزء ، كما ذهب إليه بعضهم[3].

وإنما أوثر فعل الإلقاء – بإيحائه السابق – دون غيره؛ لدلالته – من وجه – علىٰ شدة الحرص ، وفرط العجلة ، إن كان فاعل الإلقاء هو ضمير البشير.

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١١/ ٢١٠

(٢) ينظر البحر المحيط ٥/ ٣٤٦ ، والدر المصون ٦/ ٥٥٧

(٣) ينظر روح المعاني ٧/ ٥٢ ، ٥٣

وندائه – من وجه آخر – علىٰ شدة الشوق ، وفرط اللهفة ، إن كان فاعل الإلقاء هو ضمير يعقوب – عليه السلام –.

علىٰ أن الذي يعاود بالتأمل الإلقاء المدلول عليه من صيغة الفعل: " فألقوه – ألقاه " في هذا القميص، والإلقاء المدلول عليه في القميص الأول من قرينة الموقف[1] يثير اهتمامه بقوة أن الإلقاء فيهما كان واحدا ، لكن الأثر المترتب عليه في كل منهما كان متقابلا ؛ فما ترتب علىٰ الإلقاء في القميص الأول كان شدة الحزن، وعمق الألم الذي كان عمىٰ يعقوب بعد حين أثرا من آثاره ، وما ترتب علىٰ الإلقاء في القمص الثالث كان شدة الفرح ، وفرط المسرة التي كان من آثارها ارتداد يعقوب – عليه السلام – بصيرا كما كان ، وهذا نوع من مفارقة المفاجأة عجيب، يندرج تحت ما يعرف – حديثا – بمفارقة الموقف، أو السياق؛ حيث تجد المقدمات واحدة ، والنتائج المترتبة عليها متضادة ومتغايرة ، وهذا النوع من المفارقة يعكس في محاور الدراسة مدىٰ حيوية القميص وجدته في مواضعه، ويصور قوة فاعليته في تنوع الأحداث ، وتنامي المواقف ، وتعدد الدلالات وتغايرها.

وبرهان الوجه الأول – ثانيا – من تقرير وجدان يعقوب – عليه السلام – ريح يوسف، المنبعث من قميصه المرسل خاصة وتمكينه ، في قوله: " ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون "؛ فإن وجدانه ريحه علىٰ

---

(١) حيث ورد أن يعقوب – عليه السلام – لما أتاه القميص الأول ملطوخا بدم كذب ألقاه علىٰ وجهه ، ثم بكىٰ ، حتىٰ تخضب وجهه من دم القميص ، وقد سبق أن فصلت القول في هذا في المحور الأول .

هذا النحو يستلزم حياته ، ويبشر بقرب لقائه ، وهذا نوع من الإثبات أبلغ وآكد؛ لخروجه مخرج الكناية التي هي بمنزلة دعوىٰ مقترنة بدليل صحتها ، وبرهان صدقها ، وذلك حتىٰ يتحقق في النسق الكريم تناغم دلالات الخصوصيات: خصوصية الكناية، وخصوصية " إن "، واسمية الجملة ، وخصوصية دخول اللام في الخبر في قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ؛زيادة في تأكيد الخبر وتحقيقه؛ لأنه مظنة الإنكار والرفض الشديد.

وتعضيد هذا – أولا – من قرينة السياق ؛ بنسبتهم إياه إلىٰ الضلال في قوله ، حكاية عنهم: " تالله إنك لفي ضلالك القديم " ، بإخراج عبارتهم مخرج الجزم والتحقيق؛ بالقسم " تالله " و" إن " واسمية الجملة، ودخول اللام في الخبر – أيضا، وإيثار حرف الظرفية " في " ، الداخلة علىٰ الضلال ، وإضافة الضلال إلىٰ ضمير خطاب يعقوب – عليه السلام –، ووصف الضلال بالقديم ؛ للدلالة علىٰ تمكنه منه، ورسوخ قدمه فيه ، ودوامه عليه، والمعنىٰ: لفي ذهابك عن الصواب قدما بالإفراط في محبة يوسف ، والإكثار من ذكره ، والتوقع للقائه[1].

وفي قوله حكاية عن يعقوب نفسه: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ الذي حذف منه جواب " لولا "؛ إذ التقدير: لولا أن تنسبوني إلىٰ الفند – وهو الفساد، أو ضعف الرأي والعقل من الهرم وكبر السن، أو غير ذلك مما وجهوا به الكلمة[2]

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٠٤ ، وحاشية الشهاب الخفاجي ٥/ ٢٠٥ ، وروح المعاني ٧/ ٥١

(٢) ينظر جامع البيان للطبري ١٦/ ٢٥٦ ، والكشاف ٢/ ٥٠٤

– لصدقتموني في إخباري إياكم بكونه حيا لم يمت؛ لأن وجداني ريحه دال علىٰ ذلك[1]، وقد سبق تفصيل هذا وتحليله.

وتأكيده – ثانيا – من قرينة الحال؛ بدلالة ما رواه ابن عباس – رضي الله عنهما – من أن يعقوب – عليه السلام – شم ما عبق بالقميص من ريح يوسف – عليه السلام – من مسيرة ثمانية أيام، وقيل : من مسيرة ثمانين فرسخا، وقيل: من مسيرة ثلاثين يوما ، وقيل : من مسيرة عشر ليال؛ استأذنت الريح ربها في إيصال عرف يوسف إلىٰ يعقوب – عليه السلام – فأذن لها[2]؛ فإن وجدانه ريحه علىٰ هذا النحو مع بعد المسافة وطول المدة يستلزم – من وجه – الاستبعاد، وشدة الإنكار الموجبة لتأكيد الكلام.

ويستلزم – من وجه آخر – قوة الريح المنبعثة من القميص، وشدة فوحها المنبئ عن كمال الحياة ، وتمام العافية.

الوجه الثاني: الجزم بإثبات هذه الدلالات السابق تفصيلها وتحليلها في أول المحور وتمكينها بعد ارتداد يعقوب – عليه السلام – بصيرا بإلقاء القميص علىٰ وجهه مباشرة في قوله: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾، وقرينة هذا من إخراج الكلام مخرج التقرير والتوكيد ، والتحقيق والتثبيت ؛ بإيثار صيغة الاستفهام التقريري " ألم " المشوب بإنكار وتقريع ، ولوم وتعنيف[3]، وبإيثار "إن" المؤكدة ، واسمية الجملة المنبئة عن

(١) ينظر الكشاف ٢٠٥٠٤ ، وأبو السعود ٤/ ٣٠٥

(٢) ينظر تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٩ ، وروح المعاني للألوسي ٧/ ٥١

(٣) ينظر زهرة التفاسير لأبي زهرة ٧/ ٨٥٩ ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ ٠

الثبوت والدوام ، والإخبار عنها بالجملة الفعلية التي فعلها مضارع مثبت؛ للدلالة علىٰ تجدد العلم وحدوثه مرة بعد مرة، وحالا بعد حال ، والمعنىٰ: " قد قلت لكم حين أرسلتكم إلىٰ مصر، وأمرتكم بالتحسس، ونهيتكم عن اليأس من روح الله – تعالىٰ –﴿ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾من حياة يوسف – عليه السلام[1].

وهذا يرجح أن يكون الخطاب في الجملة لبنيه القادمين من مصر، وليس لمن كان عنده من أولاده وأحفاده ؛ إذ هو الأكثر تناغما وتناسبا مع منطوق الجملة الكريمة ومضمونها[2].

الوجه الثالث من أوجه تعويل النسق الكريم في إثبات الأسرار والنكات السابق تفصيلها وتحليلها في أول المحور علىٰ دلالة القميص وحدها يتمثل في طلبهم الاستغفار من أبيهم في قوله : ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ ؛ فإنه قاطع الدلالة في تعظيم دور القميص ، وتصوير قوة دلالته في الإعلام بحياة يوسف – عليه السلام – وتأكيد علم يعقوب – عليه السلام – من الله ما لا يعلمون.

وقرينة هذا وبرهانه من تعقيب طلب الاستغفار السابق بعلته ، وإتباعه بسببه الموجب له في قوله : ﴿إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ الذي خرج مخرج التذييل التعليلي المقرر والمؤكد لمضمون الطلب السابق عليه ؛ فإن مضمونهما شيء واحد.

---

(١) ينظر معالم التنزيل للبغوي ٤/ ٢٧٦ ، وروح المعاني للألوسي ٧/ ٥٣ .

(٢) ينظر المرجعان السابقان ، الأول ٤/ ٢٧٦ ، والثاني ٧/ ٥٣ .

وقد أضاف إلىٰ وقوع الجملة السابقة في موقع التذييل قوة إلىٰ قوتها بناؤها بناء مؤكدا ؛ بإيثار " إن " واسمية الجملة ، وكون خبر الحرف الناسخ جملة فعلية، فعلها هو الماضي من الكون خاصة ، وهذا من جميل اعتذارهم ، وحسن طلبهم، وفرط تلطفهم ، وشدة حرصهم علىٰ تحقيق مرادهم.

وأما رابع أبرز هذه القرائن فيشخص في تسمية حامل القميص، الجائي به " بشيرا " في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾؛ فإنها بلغت في مطابقة حال يعقوب الغاية ، وأربت في موافقة مقام البشارة بحياة يوسف، والإيذان بقرب لقائه علىٰ النهاية؛ لما فيها من فرط التعجيل بالمسرة التي تمتلئ لها النفس انشراحا وانبساطا ، وسرعة المبادرة إلىٰ إدخال الفرحة والسكينة، والأنس والطمأنينة إلىٰ قلب يعقوب – عليه السلام – الذي كواه الحزن ، وأضناه فراق يوسف – عليه السلام –.

وتأكيد ما وراء هذه التسمية من إيحاء يتناسل – أولا – من عطف جملة الشرط التي وقعت فيها اللفظة فاعلا لفعل الشرط وجوابه بالفاء التي تقتضي السرعة.

ويتناسل – ثانيا – من دخول الفاء علىٰ " لما " التوقيتية التي أوثرت دون غيرها من أدوات الشرط في ربط جملتي الشرط والجزاء ؛ لما يتوفر فيها من عنصر المفاجأة ؛ لدلالتها – أيضا – علىٰ وقوع الإلقاء عقب المجيء وترتبه عليه من دون فصل؛ بقرينة زيادة " أن " بين الأداة وفعل الشرط ؛ لتأكيد ما يفيده حرف الشرط من المعنىٰ المذكور[1].

(١) ينظر التفسير الكبير للرازي ٩/ ١٤٨، وزهرة التفاسير ٧/ ٨٥٩ ، والتحرير والتنوير ١٢/ ١١٦

كما يتناسل – ثالثا – من إيثار " البشير " علىٰ وزن " فعيل " من أمثلة الزيادة؛ للمبالغة في الدلالة علىٰ عظم البشارة وفخامتها ، والتأكيد علىٰ فرط سرعته وقوة مبادرته إلىٰ إلقاء القميص علىٰ وجه يعقوب – عليه السلام – وإبلاغه الخبر(١).

وتأكيد هذا المعنىٰ وتعضيده من قرينة الحال ؛ بدلالة ما ورد من أن البشير كان يحمل من الزاد سبعة أرغفة ، لم يبلغها أكلا – مع بعد المسافة ، حتىٰ وصل إلىٰ موضع أبيه ، وأنه خرج حافيا حاسر الرأس(٢)، وهذا إنما يدل – كما سبق من وجه – علىٰ فرط تعجله ، ويشير إلىٰ غاية لهفته، وينبئ – من وجه آخر– عن شدة بر البشير بأبيه ، وينطق بعظيم رحمته إياه.

وتعضيد هذه الدلالة الأخيرة من طبيعة الموقف الذي لابس الأمر بالذهاب واقترن به في قوله: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾؛ فقد ورد أن البشير كان يهوذا بن يعقوب، وأنه قال لإخوته بعد إعطاء يوسف قميصه إياهم ، وأمرهم بالذهاب: قد علمتم أني ذهبت إلىٰ أبي بقميص الترحة ، فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة، فتركوه.

ومنشأ هذا الشعور من إحساس يهوذا من نفسه بالندم ؛ لما فرط منه في حق أبيه يعقوب من عقوق سابق ؛ لما جاءه بالقميص الأول ملطوخا بدم كذب، فأراد أن يمحو ذاك العقوق السابق بهذا البر الراهن، والله أعلم(٣).

---

(١) وهذا يرجح كون فاعل الإلقاء هو ضمير البشير ، وليس يعقوب – عليه السلام – .

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٠٣

(٣) ينظر المرجع السابق ٢/ ٥٠٣ ، كما يراجع مقال : نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – لمحمد المرواني ص٢ .

وانطلاقا من طبيعة هذا الموقف الذي صدر عن يهوذا ، ونزولا علىٰ مقتضىٰ دلالته التي سبق تحليلها نجد أنفسنا أمام نوع من التقابل والتضاد بين دلالة هذا القميص الثالث ، وبين عطاء القميص الأول يمثل سمة من سمات القميص في السورة الكريمة – أيضا –؛ فكما كان القميص الأول مشيرا إلىٰ قضية عقوق الأبناء للآباء ؛ لما ترتب عليه من ضيق وحزن ، وفقد وألم كان من آثاره عمىٰ يعقوب – عليه السلام – كذلك جاء هذا القميص الثالث رمزا دالا علىٰ ضد القضية الأولىٰ، وهي قضية بر الأبناء بالآباء ، لما ترتب عليه من مسرة وانبساط ، وبشر وحبور، كما كان من نتائجه رجوع يعقوب – عليه السلام – وارتداده بصيرا معافىٰ كما كان.

وتأكيد هذا التحليل الذي نحا إليه البحث من أمرين :

الأول : مما ذكره ابن كثير في تعليل هذا الموقف من يهوذا بأنه أراد أن يغسل ذاك بهذا ، ومنشأ هذا الشعور ومثيره – كما سبق أن ذكرت – من إحساسه بالندم لما فرط منه في حق أبيه من عقوق ، لما جاءه بالقميص الأول ملطوخا بالدم(١).

الثاني: من قرينة السياق ؛ بدلالة قوله سبحانه : ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾؛ فإن شعورهم بعقوقهم لأبيهم كان من وراء اعترافهم بالذنب، وطلبهم الاستغفار من أبيهم يعقوب – عليه السلام – وبهذا أذهبت الحسنات السيئات ، ومحا البر ما اقترف العقوق.

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٤١٠ ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، الطبعة الثانية ١٩٩٩م ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، أي : ذاك الموقف السابق بهذا الموقف الراهن.

وانطلاقا من حديث البر والعقوق السابق ، وتأسيسا عليه فإن ثمت نوعا من البر قد اختص هذا القميص الثالث بالدلالة عليه ، دون أن يقابله مثقال ذرة من عقوق في القميص الأول ، وهو بر يوسف بأبيه يعقوب – عليه السلام –[1] ، وقد بدا هذا واضحا من مقتضىٰ حاله – عليه السلام – في العلم بما نزل بأبيه من كرب وبلاء ، ودليل هذا ما رواه الطبري من أن يوسف – عليه السلام – لما عرف إخوته نفسه سألهم عن أبيهم ، فقالوا : ذهب بصره من الحزن ، فعند ذلك أعطاهم قميصه، وطلب إليهم متعجلا: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾"[2]، ففي هذا الموقف ما يدل علىٰ نزول يوسف – عليه السلام – علىٰ مقتضىٰ البر ، وكمال الإحسان، حين علم أن دواء أبيه من دائه قريب ؛ فيعقوب – عليه السلام – قد تلقىٰ بوجهه القميص الأول ، وهو قميص عقوق وإساءة ، وفقد وحزن ،فكان سببا مباشرا في عماه ، فهل يزيل عنه هذا العمىٰ الذي كان أثرا من آثار القميص الأول إلا قميص بر ووصال ، وحب وريح ذكي لا يبخل به ابن بار علىٰ أبيه ، وهذا ما جسده القميص الثالث وصوره [3].

كما انتصب هذا المعنىٰ شاخصا من قرائن السياق ، وتأكيد هذا من إيثار صيغة الطلب: ﴿اذهبوا﴾ والتي تفيد وجوب الامتثال ، والشروع في تنفيذ الأمر علىٰ سبيل الفور .

(١) يراجع مقال : نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – لمحمد المرواني ص٢

(٢) ينظر جامع البيان للطبري ١٦/ ٢٤٨

(٣) يراجع مقال: نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – ص٢

ومن إسناد هذه الصيغة إلىٰ ضمير جماعة الإخوة ؛ للدلالة علىٰ استوائهم جميعا في الأمر ، وهذا من جده في الطلب ، وصرف عنايته إلىٰ شدة الاهتمام بتحقيقه وحصوله .

ومن إيثار الفاء خاصة في عطف الجملة: " فألقوه " علىٰ الطلب السابق؛ فإن ما فيها من دلالة السرعة لمما ينبئ عن شدة حرص يوسف – عليه السلام – ويصور فرط لهفته، وقوة حثه إياهم علىٰ المضي قدما في تحقيق المطلوب من دون مهلة أو تراخ .

ومن إضافة عنوان الأبوة إلىٰ ضمير نفسه دونهم في قوله: " أبي " ؛ فإنها تفيض رحمة وعطفا ، وحنانا ورفقا ، وبرا وصلة .

وكذلك من إيثار صيغة المضارع : " يأت " في جواب الطلب المعطوف ، وما وراءها من دلالة علىٰ كمال الإحسان ، وتمام البر ، وحسن الأدب ، وذلك علىٰ النحو الذي سبق تحليله آنفا ، فهذا كله درس في البر لا يغيض ماؤه ، ولا يبلي رواؤه ، والله أعلم .

وأخيرا : فإن من وراء هذا القميص الثالث في نسقه دلالة أخرىٰ ، لا يمكن إهمالها ، أو حتىٰ التغافل عنها ، وهي ليست من دلالات القميص الأول ، وليس لها ما يقابلها من ورائه هناك ، ولكنها ناظرة إليه ، ولا تنفصل عنه ؛ إذ لا يتأتىٰ اعتبارها من دون استلهامه ، أو من دون وضع كل واحد من القميصين بإزاء الآخر، وفي مقابلته ، هذه الدلالة تمكن فيما يبوح به هذا القميص من عتاب رقيق، وتذكير نافذ شفيف بما كان من شأن القميص الأول .

وكأن لسان حال يوسف – عليه السلام – يقول لإخوته: هذا هو قميصي الحقيقي ، هذا هو قميصي الذي أفرح و أبتهج بأن يرد علىٰ أبي ، وليس ذلك القميص الذي جردتموني منه عنوة ، ونزعتموه من علىٰ جسدي رغما عني، ولطختموه بدم كذب؛ لتحزنوا به أبي[1].

وقرينة هذه الدلالة – أولا – من مقتضىٰ حاله – عليه السلام – في الغنىٰ والثراء ، والقوة والسلطان ، ومن مقتضىٰ حالهم في شدة الفقر والحاجة ، وفرط الحياء والخجل ، وبرهان هذا وتأكيده من أمره إياهم بالذهاب: " اذهبوا بقميصي هذا ... " ؛ فهو اليوم صاحب إرادة واختيار ، وقوة وسلطان ؛ يطلب منهم أن يذهبوا بقميصه ، ويأمرهم أن يلقوه علىٰ وجه أبيه يعقوب – عليه السلام – دون أن يكون لهم خيار في القبول أو الرفض ، أو الجدال والمنازعة ، وليس كذلك الحال في القميص الأول الذي نزع عنه رغما عنه ، ومن دون إرادته واختياره .

وقرينة هذا – ثانيا – من عوامل السياق وعناصره ؛ بدلالة إبدال اسم الإشارة " هذا " من لفظة القميص ، أو بيانه إياها ؛ فإن ما في الإشارة من معنىٰ القرب لمما ينبئ عن شدة دنو الموقفين ، ويصور قرب حصول الحالتين ، حتىٰ كأنهما وقعا في لحظة زمانية واحدة ، وجمعهما مكان واحد .

وبدلالة إضافة عنوان الأبوة إلىٰ ضمير نفسه – عليه السلام – خاصة؛ فإن فيها إيحاء قويا بجدارة يوسف دونهم بهذا الوصف؛ لاستحضارها – من قريب – ما فرط منهم من عقوق في حق أبيهم يعقوب – عليه السلام – .

---

(١) يراجع المرجع السابق ص٢ .

أرأيت كيف تعانقت القرائن – علىٰ اختلافها وتنوعها، وتعددها – علىٰ تصوير دلالات القميص؟ وكيف تضافرت كل الوسائل والأسباب إلىٰ إثرائها، وتعميقها ، وتجذرها في نسق الكلام ؟ وذلك علىٰ نحو يؤكد فاعلية القميص، ويجسد دوره المحوري في تنامي الأحداث وتصاعدها نحو غاياتها وأهدافها؛ لنصل في النهاية إلىٰ مرفأ مأنوس ، وشاطئ مأهول ، ونؤكد ما أكده علماؤنا[1] من أن قصة يوسف – عليه السلام – كلها في قميصه ، وأن هذا القميص في سياقاته المختلفة من السورة الكريمة يترفع عن أن يكون مجرد لباس عادي ، أو مجرد متاع في ضمن حاجيات يوسف – عليه السلام – أو حاجيات إخوته، بل هو رسالة تحمل في ثناياها دلالات وإشارات ، وأدلة علىٰ أفعال وأقوال ، ونوايا صدرت من لابسها أو من المتعرض لها ، وهذه الأفعال ، والأقوال ، والنوايا فيها دروس من الإيمان والصبر ، والعفاف والبر ، والرحمة والشكر ، والرعاية والنصر ، لا ينبغي إهمالها ، أو تجاهلها والتغافل عنها .

*** *** ***

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٥١ ، والتفسير الكبير للرازي ٩/ ٧ ، والأنساق الثلاثية في قصة يوسف – عليه السلام – ؛ لأبي عبد المعز ، ونظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام لمحمد المرواني ص٢ ، وقمصان يوسف كل هو برهان للكاتب عطية زاهدة ، مقال منشور بمجلة عرب تايمز ، أكتوبر ٢٠١٣م .

الخاتمة

لعل من المناسب وبعد أن انتهينا من الوقوف مع أثر القرائن في تصوير دلالات القميص في قصة يوسف – عليه السلام – في محاور البحث المختلفة أن نفيء إلىٰ الخاتمة ، ونحط رحالنا عندها ؛ لنسجل بعض أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة في هذا البحث المتواضع ، وهي علىٰ النحو الآتي:

١-فاعلية القرائن ، وأثرها العميق في تصوير دلالات القميص في قصة يوسف والكشف عنها ، وتشخيصها ، وتقريرها وتأكيدها ، وتثبيتها وتمكينها ؛ إذ هي - كما ثبت من الدراسة – كالأدلة المنتصبة علىٰ صحة هذه المعاني والدلالات ، والبراهين المقتضية صدقها وقبولها ، والمعالم الهادية إلىٰ دروبها وطرق استنباطها .

٢-أن القرائن هي المعول عليه وحده في تعيين دلالات القميص وتحديدها، وفي ترجيح جانب دلالة علىٰ دلالة أخرىٰ ، لاسيما عند تشعب الدلالات ، وتنازع الاحتمالات ، ومن هنا تصير عنصرا رئيسا في الدلالة علىٰ المعنىٰ .

٣-كثرة القرائن وتنوعها وتشعبها كان سببا رئيسا من أهم أسباب ووسائل ثراء المعنىٰ ، وتنوع دلالات القميص ، وهو ما ترتب عليه اتساع الدراسة حول هذه الفكرة ، وامتدادها وتشعبها – أيضا .

٤-كثرة الأسرار والاعتبارات البلاغية المتناسلة من القرائن نفسها ، والمتعلقة بها، والمنبثقة عنها في نسق القصة ، وهو ما أضاف إلىٰ هذه الدراسة المتواضعة أبعادا أخرىٰ من الحيوية ، ورصيدا آخر من الثراء والسعة، وطرقا إضافية من طرق الدلالة والاستنباط .

٥-كان للقرائن أثر كبير في إحداث نوع من الثنائيات المتقابلة، والمعاني المتضادة بين دلالات القميص الواحد ، وبين دلالات الأقمصة الثلاثة في محاور الدراسة المختلفة ، وهو ما أضاف إلىٰ هذه الدلالات عمقا في الإيحاء، وسعة في العطاء ، ورحابة في التناول .

٦-ارتباط لفظة القميص وتكرر دورانها في محاور البحث قلة وكثرة بطبيعة الموقف ، وخصوصية المقام الذي يمثل إحدىٰ الجوانب المهمة من جوانب القرائن.

٧-محورية القميص ومركزية دوره في تحريك أحداث القصة ، وتصاعدها وتناميها إلىٰ الذروة أو العقدة ، وإلىٰ بلوغها غاياتها وأهدافها ، وكذلك في رسم وتصوير ملامح شخصية نبي الله يوسف – عليه السلام – منذ نعومة أظافره، وهذا يؤكد ما قرره علماؤنا من أن قصة يوسف كلها في قميصه ، وأن هذا القميص يترفع في القصة ن أن يكون مجرد رداء عادي ، منسوج من مادة خاصة لتأدية مهمة حسية ، بل هو رسالة تحمل في ثناياها دلالات وإشارات ، وتتفتق عن دروس وعبر لا ينبغي تجاوزها ، أو إغفالها ، أو إهمالها .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، وصل اللهم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

د/ السيد أحمد أحمد موسىٰ

فهرس المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

-إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي – الطبعة الرابعة ١٩٩٤م ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

-الأطول للعصام الاسفريائيني، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠١م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

-الأنساق الثلاثية في قصة يوسف عليه السلام ، مقال لأبي عبد المعز ، ملتقىٰ أهل الحديث – منتدىٰ أهل القرآن وعلومه ٩/ ٢٠٠٧م .

-أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٨م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

-الإيضاح في البلاغة للخطيب القزويني ، دار الجبل ، بيروت ، بدون تاريخ .

-البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، الطبعة الثانية ١٩٩٠م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

- بناء المفارقة دراسة نظرية تطبيقية، أدب ابن زيدون نموذجًا لأحمد عادل عبد المولىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٩م، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع.

-التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م ، مؤسسة التاريخ ، بيروت .

-التعليل في القرآن الكريم . دراسة وتفسيرا .د/ محمد سالم ، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٥م ، مطبوعات أولاد عثمان ، مصر .

-تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: د/ سامي بن محمد سلامة ، الطبعة الثانية ١٩٩٤م، دار طيبة للنشر والتوزيع .

-التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب ، دار الفكر العربي ، القاهرة، بدون تاريخ.

-التفسير الكبير للفخر الرازي ، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٢م – دار الغد العربي، القاهرة.

-تفسير الشيخ مصطفىٰ المراغي ، الطبعة الأولىٰ ١٩٦٤م ، شركة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر .

-تفسير النصوص في الفقه الإسلامي لمحمد أديب صالح ، الثالثة ١٩٨٤م، المكتب الإسلامي، بيروت .

-تهذيب اللغة للأزهري ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، الأولىٰ ٢٠٠١م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

-جامع البيان لابن جرير الطبري ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، الأولىٰ ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

-الجامع الصحيح للإمام البخاري ، جمع وترتيب : محمد فؤاد عبد الباقي ، الأولىٰ ٢٠١٨م ، دار ابن حزم ، القاهرة .

-الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، تحقيق : أحمد البردوني – د/ إبراهيم أطفيش، الثانية ١٩٦٤م – دار الكتب المصرية .

-جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف. د/ عويض بن حمود العطوي، المملكة العربية السعودية ٢٠١٠م.

-جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، تحقيق : محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .

-حاشية الدسوقي من شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

-حاشية الشهاب الخفاجي علىٰ تفسير البيضاوي ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .

-خصائص التراكيب . د/ محمد أبو موسىٰ ، الطبعة الرابعة ١٩٩٦م ، مكتبة وهبة ، القاهرة.

- الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩ هـ - ٧١٠ هـ)- تحقيق: الدكتور كامل سلمان الجبوري- الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، دار الكتب العلمية، بيروت.

-الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ، تحقيق : أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، بدون تاريخ .

-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة١٩٩٢م ، مطبعة المدني، القاهرة .

-ديوان الخنساء شرح / حمدو طماس – دار المعرفة – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤٢٥ه – ٢٠٠٤م.

-ديوان الراعي النميري بشرح د/ واضح الصمد ، الأولىٰ ١٩٩٥م ، دار الجبل، بيروت .

-الرسالة البيانية للشيخ محمد الصبان ، الطبعة الأولىٰ ١٣١٥ هـ ، المطبعة الأميرية ، مصر .

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ، تحقيق: علي عبد الباري عطية ، الأولىٰ ١٤١٥هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

-زهرة التفاسير لأبي زهرة ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .

- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (ت: ٤٨٧هـ) نسخه وصححه وحقق ما فيه وخرجه وأضاف إليه عبد العزيز الميمني - دار الكتب العلمية، بيروت.

- شرح الأشموني علىٰ ألفية ابن مالك لعلي بن محمد بن عيسىٰ، أبو الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي (ت: ٩٠٠هـ) - الطبعة الأولىٰ ١٤١٩هـ-١٩٩٨م- دار الكتب العلمية بيروت.

- شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا ــ طارق فتحي السيد، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

-شرح العصام علىٰ متن السمرقندية ، تحقيق : إلياس قبلان ، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٩م .

-شروح التلخيص علىٰ مختصر السعد، دار الكتب العلمية ، بيروت، بدون تاريخ.

-صحيح الإمام مسلم بن الحجاج ، جمع وترتيب : محمد فؤاد عبد الباقي ، الأولىٰ ٢٠١٨م ، دار ابن حزم ، القاهرة .

-العلاقات والقرائن في التعبير البياني . د/ محمود موسىٰ حمدان ، الأولىٰ ٢٠٠٥م، مكتبة وهبة، القاهرة .

-في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، الثانية عشرة ١٩٨٦م ، دار الشروق، القاهرة .

-القرائن وأثرها في التفسير . د/ محمد زيلعي هندي ، الأولىٰ ٢٠١٠م ، دار كنوز أشبيليا للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية .

-قرآنيات القمصان الثلاثة لأحمد إسماعيل ، مجلة بقية الله ، العداد ٢٠١ ، أبريل ٢٠٢٠م .

-قمصان يوسف .د/ حسن الأمراني ، مقال منشور بجريدة المحجة ، العدد ٢٧٣، ٢٠١٢م .

-قمصان يوسف كل هو برهان للكاتب عطية زاهدة ، مقال منشور بمجلة عرب تايمز ، أكتوبر ٢٠١٣م .

-قواعد الفقه لمحمد عميم الإحسان المجددي البركتي ، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٦م .

-كتاب الانتصاف لابن المنير الإسكندري ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث ، القاهرة.

-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث ، القاهرة .

-الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، لأبي البقاء الكفوي ، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨م .

-لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ، تحقيق : محمد علي شاهين ، الأولىٰ ١٤١٥ هـ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

-اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي الدمشقي ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ محمد علىٰ معوض ، الأولىٰ ١٩٩٨م ، دار الكتب العلمية، بيروت .

-لسان العرب لجمال الدين بن منظور ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ .

- مجمع الأمثال للميداني، تحقيق: محمد محيىٰ الدين عبد الحميد- دار المعرفة- بيروت، بدون تاريخ.

-المحرر الوجيز لابن عطية ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، الأولىٰ ١٤٢٢هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

-المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده ، تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي، الأولىٰ ٢٠٠٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

-المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ، تحقيق : مصطفىٰ عبد القادر عطا ، الأولىٰ ١٩٩٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

-معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الطبعة الرابعة ١٩٩٧م ، دار طيبة للنشر والتوزيع .

-المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، فتحي أحمد عامر ، طبعة ١٩٧٦م ، منشأة المعارف -الإسكندرية .

-معاني القرآن للفراء ، تحقيق : أحمد يوسف النجاتي وآخرون ، الأولىٰ بدون تاريخ، دار المصرية للتأليف .

-معاني القرآن للنحاس ، تحقيق : محمد علي الصابوني ، الأولىٰ ١٤٠٩هـ، جامعة أم القرىٰ ، مكة المكرمة .

-معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، الأولىٰ ١٩٩٨م، عالم الكتب ، بيروت .

-المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الأولىٰ ١٤١٢هـ ، دار القلم ، دمشق .

-مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر العربي ١٩٧٩م .

-موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ، تحقيق : د/ علي دحروج، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٦م ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت .

-نظرة جديدة إلىٰ قمصان يوسف – عليه السلام – لمحمد المرواني ، مقال منشور بمركز تفسير للدراسات القرآنية ، الملتقىٰ العلمي للتفسير وعلوم القرآن ، ٢٠١١م .

-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون .

-النكت والعيون للماوردي ، تحقيق : السيد عيد عبد المقصود عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

*** *** ***